

هناك.. حيث بُعِثَت العنقاء



تأليف
فيتالي ناؤومكين

ترجمه عن الروسية
أ.د. علي صالح الخلاقي

سُقُطْرَى ...

هناك.. حيث بُعِثَتْ العنقاء

تأليف

فيتالي ناؤومكين

ترجمه عن الروسية

د. علي صالح الخلاقي



حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

لمركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية بعدن (١١٦٣) لعام ٢٠١٩

الطبعة الأولى: ٢٠١٩



دار الوفاق
DAR AL WEFAQ

توزيع: دار الوفاق للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية-الرياض
هاتف: 00966535307788
بريد إلكتروني: dar@wefaq.net





كلمة لابد منها

هذا الكتاب الذي نقدمه (سقطرى... هناك حيث بُعثت العنقاء) لمؤلفه المستشرق الروسي المعروف فيتالي ناؤومكين، هو باكورة أبحاث ودراسات لاحقة له عن سقطرى منها (دراسات إثنوغرافية - لغوية عن سقطرى)، و(السقطريون-دراسات إثنوغرافية تاريخية)[1]، وهذا الأخير هو أهم أعماله المكرسة لسقطرى، أجمل فيه حصيلة بحثه العلمي الدائب، النظري والميداني من مطلع السبعينيات وحتى صدوره عام ١٩٨٨م في موسكو باللغة الروسية، وقد ترجم إلى الإنجليزية وصدر في لندن عام ١٩٩٣م، قبل أن نتعرف عليه باللغة العربية.

المصادفة الطيبة وحدها أوقعت في يدي هذه المؤلفات القيمة عن سقطرى وغيرها من المؤلفات الروسية التي تعرضت لليمن، وذلك خلال بحثي عنها في مكتبات موسكو بدافع حب الاطلاع والتعرف على ما قاله ويقوله الآخرون عنا وعن بلادنا اليمن، وبشكل خاص تلك المؤلفات ذات الصبغة التاريخية، التي تناولت الحقب الماضية من تاريخ بلادنا، بعين مشاهدة وشاهدة على

(١) صدر هذا الكتاب باللغة العربية عن دار جامعة عدن للطباعة والنشر عام ٢٠١٥م بترجمة: د.علي صالح الخلاقي.



تلك الفترات المظلمة التي عاشتها بلادنا في عزلة عن العالم تحت حكم الأئمة المباد والمستعمرين الدخلاء، ومثل هذه المؤلفات كثيرة في دول الغرب كما في روسيا كذلك، ورغم اختلاف مؤلفيها وتباين الأهداف التي توخوها من كتابتها، فإنها تعد بالنسبة لنا شاهدات نادرة ومفيدة وبعين محايدة، وربما معادية أو صديقة في بعض الأحيان، ولكنها ذات أهمية للباحثين والمهتمين وللقراء عمومًا.

ومؤلف الكتاب الذي نقدمه عاشق لسقطرى خاصة، ولبلادنا عامة، وليس أدل على ذلك من هذه الإصدارات الثلاثة المكرسة لسقطرى وحدها، ناهيك عن الأبحاث والدراسات التي صدرت في الدوريات الروسية وغيرها، وقد أصبت بالدهشة حين وقعت في يدي الثلاثة الكتب المشار إليها، وعلى الفور تذكرت افتقار مكتباتنا الوطنية لمثل هذه المؤلفات، بل ولم أنس حتى اللحظة الصعوبة التي واجهتها في الحصول على معلومات تاريخية وتفصيلية عن الجزيرة، عند زيارتي الأولى لها نهاية عام ١٩٧٩م، تدعم الاستطلاع الذي نشرته عنها في صحيفة (١٤ أكتوبر) في مطلع يناير ١٩٨٠م، إذ لم أجد حينها سوى النزر القليل من المعلومات المتناثرة، التي لا تسمن ولا تغني، ولربما كان هذا هو الحافز الرئيس الذي دفعني إلى الإقدام على خوض تجربة الترجمة، لتعميم الفائدة، ولسد الفراغ، أو الفقر الذي تعانيه مكتباتنا عن سقطرى حتى الآن، التي لا تتجاوز معلوماتنا عنها ما ورد في الكتب المدرسية والتحقيقات الصحفية السيارة، وكمحاولة أولى بدأت بأولى مؤلفات ناؤومكين عن الجزيرة (سقطرى..هناك حيث بُعثت العنقاء) وفيه يجد القارئ معلومات قيمة عن هذه الجزيرة التي أطلق عليها المؤرخون السابقون واللاحقون مختلف الأوصاف والأسماء: جزيرة الأرواح، جزيرة النعيم، جزيرة البخور والطيب،

جزيرة دم الأخوين، درة البحر العربي أو عروسته، عذراء اليمن...الخ.

قدمت الكتاب كما هو، دون تدخل من جانبي، اللهم في الحالات البسيطة التي وجدت نفسي مضطرًا لتطويع اللغة بغية أداء المعنى، وإضافة بعض الهوامش التي توضح بعض الأسماء والمصطلحات الأجنبية، وأترك للمهتمين وللقراء التمتع بقراءته والغوص من خلاله في تاريخ هذه القطعة العزيزة عن بلادنا، الضارب في القدم، والممتد إلى القرون التي سبقت الميلاد، حين كانت بلادنا وسقطرى جزءًا منها، واحدة من مراكز الحضارة العالمية الهامة، وهذا ما سعى المؤلف إلى إبرازه من خلال اطلاعه الواسع وبحثه الجاد في سيل المؤلفات الإغريقية - الرومانية، والعربية والأجنبية، التي لها صلة بجزيرة «دم الأخوين» فضلًا عن دراسته الميدانية والاطلاع المباشر والمكثف على واقع سقطرى ولغة سكانها وتقاليدهم وثقافتهم ونمط حياتهم...الخ.

ويحدونا الأمل، أن نوفق في مواصلة المشوار، في تقديم مؤلفاته الأخرى، إذا ما سمحت الظروف. ويبقى القول إن مؤلف الكتاب، فيتالي ناؤومكين، مؤرخ ومستشرق روسي معروف، درس في موسكو والقاهرة، وتخصص في التاريخ العربي والإسلامي واللغة العربية، وعمل أستاذًا في علم التاريخ، وزار عددا من الدول العربية، واشتغل في اليمن مدرسا وباحثا، وفي منتصف الثمانينيات انتقل إلى معهد الدراسات الشرقية في أكاديمية العلوم الروسية، حيث يعمل الآن نائبا لمدير المعهد، ورئيسا لقسم الدراسات الاستراتيجية والدولية، وله العديد من المؤلفات الأخرى مثل «التاريخ المعاصر للدول العربية» ج ١+٢ موسكو ١٩٨٩م و«الجبهة القومية في النضال من أجل استقلال جنوب اليمن» وغيرها.

د. علي صالح الخلاقي



تقديم الطبعة العربية[1]

إنه لمن دواعي السرور أن أكتب هذه الكلمات مقدمة للطبعة العربية لكتابي «سقطرى...هناك حيث بُعثت العنقاء» وهو أول بحث صدر بعد الزيارة الأولى التي قمت بها للجزيرة عام ١٩٧٤م، ويتضمن المعلومات الأولية عن سقطرى التي كانت حينئذ معزولة تمامًا ولا يُعرف عنها شيء تقريبًا، وحينما واصلت البحث العلمي في الجزيرة بعد صدور هذا الكتاب، وجدت أن كثيرًا مما كُتب عن الجزيرة كان بحاجة إلى تعديلات وإضافات، وتوصلت إلى نتائج جديدة ضمنتها مؤلفاتي الأخرى عن سقطرى التي صدرت بعد ذلك، منها «دراسات أثنوغرافية» - لغوية عن سقطرى صدر بالروسية في موسكو عام ١٩٨١م و«السقطريون» صدر بالروسية عام ١٩٨٨م، وبالإنجليزية في لندن عام ١٩٩٣م.

فيتالي ناؤومكين

موسكو ١٩٩٥م

(١) صدرت الطبعة العربية الأولى لهذا الكتاب بترجمة د. علي صالح الخلاقي عن دار جامعة عدن للنشر سنة ١٩٩٥م، وقد كتب المؤلف هذا التقديم لها (الناشر).



تقديم الطبعة الروسية

إذا أصبحت رحالة، فامتلك دائمًا عيون صقر، وآذان حمار، ووجه قرد، ومناكب بعير، وأقدام أيل، وأحيانًا لا تتعشم أنه يكفيك الصَّبر والنقود.

فلوريو

سقطرى... هذه الكلمة تثير لدى المستعربين الاختلاج والاهتزاز، مثل شيء قديم، إلى درجة أن وجودها الحقيقي يبدو خياليًا.

هناك مشاعر مماثلة تثيرها الأهرامات المصرية، معابد الأقصر والكرنك، بيد أنه تعمل هناك صناعة سياحية ضخمة، حولت الآثار القديمة إلى خواص مألوفة للسياحة الراهنة، ولذلك فمحل الاختلاج تحل بسرعة مشاعر أخرى.

أما في حالة سقطرى، فإن كل شيء على العكس، فعلى امتداد قرون كثيرة من الزمن، وكأن الزمن يدور حلقة مفرغة، وكأن ظروف الحياة العتيقة تجمدت هناك بعاداتها وتقاليدها.

وسقطرى - بحد ذاتها محمية لنفائس نباتات مراحل تطور المجتمع الإنساني وأشجارها. وهنا يعيش أحفاد شعوب الشرق القديمة، التي شيدت في زمن ما في جنوب جزيرة العرب دولًا وحضارة رفيعة، وقليلًا ما هو معروف عن تاريخ هذه الدول، وأقل من ذلك أيضًا عن شعب سقطرى ولغته ونمط حياته.



إن دراسة العادات والطقوس ومجمل نظام حياة السقطريين يمكن أن يفتح لنا، في الوقت نفسه، صفحات مجهولة في التاريخ العالمي، المرتبط بدور الجزيرة العربية القديم في تطور الحضارة الإنسانية، فدراسة لغة السقطريين هامة جدًا للإجابة على السؤال عن أصل الشعوب السامية واللغات السامية: اللغات العربية الجنوبية، التي تنتمي إليها اللغة السقطرية، وعلى أقل تقدير دراستها ضمن الساميات الأخرى.

سقطرى - متحف نباتي طبيعي، إذ يمكن أن نجد في ظروفها الطبيعية ما يقارب مائتي نوع من النباتات التي لا نظير لها ولا توجد في مكان آخر. وهناك أيضًا الكثير مما يوجب اهتمام علماء الطيور والحشرات، وتكتسب الجزيرة أهمية كبيرة من وجهة النظر الجيولوجية، لأن مجموعتها الجبلية تعد واحدة من أقدم المجموعات على الكرة الأرضية، ويمكن أن تقدم الحفريات الأثرية والدراسة الكاملة للجزيرة معلومات قيمة، تمكن من الإجابة على كثير من القضايا العلمية المرتبطة بالتاريخ المبكر للأرض والبشرية إجمالًا.

تقع جزيرة سقطرى في حوض المحيط الهندي، بين خطي عرض ١٢°، ١٩ و١٢°، ٤٢ شمالا، وخطي طول ٤٣°، ٢٠ و٥٤°، ٣٠ شرقًا، وتبعد عن أقرب نقطة في الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية بحوالي ٣٠٠ كم، وعن الشاطئ الشرقي لإفريقيا (رأس جفاردفوي) أكثر من ٢٠٠ كم. ورأس جفاردفوي هو أقرب نقطة برية إلى سقطرى، وقد كانت سقطرى والجزر القريبة منها، مرتبطة بهذا الرأس، في العصور الجيولوجية القديمة.



إن مساحة سقطرى (لم تقس بعد بدقة) تشكل من ٤١٥٠ إلى ٥١٠٠ كم٢، وتمتد سقطرى من الشرق إلى الغرب ١٢٠ كم طولا، ومن الشمال إلى الجنوب ٣٥ كم عرضا[١].

منذ ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، يوم تحرير جنوب اليمن من السيطرة الاستعمارية البريطانية، دخلت سقطرى قانونيًا كمديرية ضمن الدولة الناشئة في جنوب اليمن (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية).

المسافة من مدينة عدن عاصمة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية إلى سقطرى ٨٠٠ كم، ومن مدينة المكلا، أكبر ميناء في شرق اليمن الديمقراطية، حوالي ٤٨٠ كم. وإلى الغرب من سقطرى، في منتصف الطريق بينها وبين رأس جفاردفوي، تقع جزيرة عبد الكوري، وهناك أيضًا جزيرتان صغيرتان تقعان بين عبد الكوري وسقطرى، هما درسة وسموحة، ويطلق عليها أسم «الشقيقان»، وجزر أخرى صغيرة جدًا، وعبد الكوري هي المأهولة بالسكان من بين هذه الجزر.

يبلغ عمق المحيط عند شواطئ سقطرى، في بعض الأماكن (٩٠٠ مترًا). وتقع سقطرى على أساس جرانيتي، ومن الجرانيت، تكونت أيضًا، قمم جبال حَجْهَر (سلسلة جبلية في الجزء الأوسط للجزيرة) ويبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر إلى ١٥٠٠ مترًا، وحسب معطيات الجيولوجيين يمكن العثور على آثار انفجار بركاني، حدث في حدود ٦٠ مليون سنة مضت.

---

(١) مساحة سقطرى حوالي ٣٦٥٠ كم٢، وتمتد من الغرب إلى الشرق بنحو ١٣٥ كم، وعند العرض الأوسع ٤٢ كم (المترجم).



لا يوجد إحصاء دقيق لعدد سكان الجزيرة، وقدرت البعثات العلمية التي زارت سقطرى في أعوام الخمسينيات والستينيات، عدد السكان بين سبعة آلاف وتسعة آلاف نسمة، ولكن نتائج إحصاء جزئي في الجزيرة أُجري في عام ١٩٧٣م بينت أنه يعيش هناك حتى ذلك الوقت، ما لا يقل عن ثلاثين ألف نسمة.

منذ زمن، حلمت بزيارة سقطرى، ولكن لم أتصور أن أكون بالطبع، من أوائل المواطنين الروس، الذين وجدوا أنفسهم يمكثون في هذه الجزيرة، مصادفة، مدَّة طويلة إلى حد ما، وكنت هناك، حيث لم تطأ بعد قدم رجل روسي، فقد تلقيت في صيف عام ١٩٧٣م دعوة لزيارة الجزيرة ومشاهدتها، ولم أصدق حينها واقعية هذه الرحلة، قبل أن أشاهد، تحت جناح الطائرة، قمم حَجْهَر المكسوة بالغيوم.

ومن الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة إلى جزيرة سقطرى، ولد هذا الكتاب، الذي يضم أيضًا معلومات تاريخية ضرورية عن الجزيرة، التي بدونها لا يمكن معرفة أوضاع الجزيرة المعاصرة وتقديرها، ولقد رأيت في كثير من الحالات، إبداء رأيي الخاص حول فرضيات عن ماضي الجزيرة، وإعطاء استنتاجات لبعض الوقائع التاريخية، وهي أحيانًا منطلقة من الحدس الشخصي والانطباعات الخاصة، وآمل أن هذا لن يكدر القارئ، وذلك لأن دراسة سقطرى تبتدئ ليس إلاَّ.

إن الإمعان في مزيج الانطباعات التي تركتها سقطرى، ليس بالأمر الهين، وبتعبير أدق، بدون دراسة كل ما كتب عن هذه الجزيرة. ومع إن اسم الجزيرة قد ورد، في العهود القديمة، في عشرات الأساطير والأسفار التاريخية، وفي

مؤلفات مؤرخي وجغرافيي القرون الوسطى؛ فإن أعداد الكتب المكرسة لهذه الجزيرة في أيامنا هذه، نادرة جدًا. وما يثير الاستغراب، أن جزيرة كبيرة، تقع في نقطة تقاطع الطرق التجارية العالمية، وفي منطقة جرت دراستها جيدًا، ما تزال لغزًا مبهمًا، كما كانت عليه منذ عدة قرون خلت.

إن أكثر المعلومات في المؤلفات المنشورة عن سقطرى، تشتمل عليها أعمال ما يُعرف ببعثه إكسفورد، وهي البعثة المتكاملة التي ضمت في قوامها ستة علماء انجليز (أربعة من جامعة إكسفورد واثنان من كيمبردج) وعملت في الجزيرة على امتداد شهرين في العام ١٩٥٦م، وترأس البعثة دوجلاس بوتينج، وقد صدر له في عام ١٩٥٨م كتاب (موطن شجرة التنين)[1]، وفي عامي ١٩٦٤ - ١٩٦٥م، ثم في عام ١٩٦٧م، زارت الجزيرة أيضًا، إحدى البعثات برئاسة د. ب. دوو، وهو الذي ترأس مصلحة الآثار القديمة في مستعمرة عدن لعدة سنوات، و ب. ج. بوكسهولا، وقد نشر د. ب. دوو في عام ١٩٧٠م كتابًا في الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان «سقطرى - استعراض الحفريات الأثرية لعام ١٩٦٧م»، كما كتب مؤلفون انجليز آخرون عن سقطرى، وبشكل خاص ج .انجرامس، المستشار الإنجليزي لدى السلطنتين الحضرميتين، وقد عاش أكثر من عشر سنوات في جنوب الجزيرة العربية.

وفي مطلع عام ١٩٧٥م عُقدت في عدن: الندوة العالمية لدراسة الحضارة اليمنية القديمة، واكدت على أهمية دراسة لغة وثقافة السقطريين.

للأسف الشديد، أن علومنا الوطنية، لم تهتم بعد بسقطرى، ولربما يثير هذا الكتاب اهتمام علمائنا إزاء هذه الجزيرة المدهشة، وتجاه لغة سكانها

(١) شجرة التنين: هي التسمية الإنجليزية لشجرة دم الاخوين - المترجم.

وعاداتهم، ونباتاتها وحيواناتها، خاصة وقد تم التوصل خلال المدَّة القليلة الماضية، إلى اتفاق بين أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ووزارة الثقافة والسياحة في اليمن الديمقراطية، حول التبادل العلمي، وستتجه في المستقبل القريب إلى سقطرى بعثة متكاملة، يمنية - روسية تضم اختصاصيين في مختلف مجالات المعرفة، يمثلون اليمن الديمقراطية والجمعية الجغرافية في الاتحاد السوفيتي. ويحدونا الأمل في أن تقوم البعثة بأعمال مثمرة وناجحة، وأن يوسع العلماء الروس إلى درجة ما المعارف والمعلومات عن هذه الجزيرة. وبهذه المناسبة، لا يسعني إلّا أن أعبر عن تقديري العميق للسقطريين، هؤلاء الناس الطيبون والودودون للغاية، على حسن ضيافتهم ومساعدتهم لي، وكذلك للسلطات في اليمن الديمقراطية التي أتاحت لي إمكانية التواجد في الجزيرة.

هبطت طائرتنا في موري، وهي قرية في الساحل الشمالي لسقطرى، حيث تشكل التربة المستوية ذات الحصى الصلبة مطارًا طبيعيًا. قضينا ليلتنا في معسكر الحامية المحلية: تدثرنا بألحفة دافئة من صوف الأغنام، وضعت مباشرة على حشايا مرمية على أرضية حجرية، وطويلًا تناهي إلى مسامعنا صرير الرياح.

في الصباح التالي، ركبنا سيارة (جيب) بصحبة عدد من السقطرين، متجهين إلى عاصمة سقطرى، حديبو، فانطلقت بنا السيارة في طريق صخري، وتصاعدت أعمدة الغبار، ثم اجتازت بنا طريقًا مستويًا، حيث تنمو أنواع غريبة من الأشجار ذات الارتفاع المنخفض، والأغصان الملتوية المجردة من الأوراق تقريبًا، وبعد خمس وثلاثين دقيقة بلغنا مضيقًا جبليًا، وهناك

ودعنا مرافقينا في الحامية، وكان علينا الصعود بعد ذلك سيرًا على الأقدام في منحدر شديد استغرق صعودنا عشرين دقيقة، حتى وصلنا إلى حيث تعمل مجموعة شبابية من عمال الطرق في إنجاز الطريق الذي سيربط حديبو بموري، والجزء الأكبر من هذا الطريق جاهز الآن ويمكننا الركوب (على العجلات) حيث كانت في استقبالنا سيارة (لاندروفر) وصلت من حديبو، وبقي أمامنا نصف ساعة فقط، قطعناها في تصدعات متقطعة، تعلو وتنخفض، وهنا جلاميد صخرية صفراء كبيرة تغطي ساحل البحر المرتفع، ومن حولنا تسود أربعة ألوان: الأصفر الذي يتحول أحيانًا إلى أحمر فاتح وهو لون الصخور والأحجار والطرق، والأخضر الزيتوني لون النباتات النادرة، ولون السماء الصافية الزرقة، والمحيط اللازوردي الريان، الممتد لمسافات بعيدة وراء الأفق.

ها نحن الآن في حديبو، عاصمة سقطرى، وهي في الحقيقة بلدة صغيرة، تحتشد فيها البيوت ذات الطابق الواحد بنيت جدرانها من الطين، وفي أزقتها الضيقة لا نشاهد الناس تقريبًا.. ومن هنا، نبدأ رحلتنا في ماضي وحاضر سقطرى.



الفصل الأول

(سفينة نوح) أم (بلاد بُونت)؟

نباتات جزيرة سقطرى:

الطابع الغالب لتكوين الحياه في سقطرى، نباتي دون شك: إنه قبل كل شيء الأشجار التي تجعل المنظر الطبيعي لسقطرى، فريدًا وغير أرضي تقريبًا، ففي الجبال المنحنية، تلتصق أشجار القثاء الخرقاءEuphorbia (الفيربون: اليتوع، نبات ذو لبن دار - المترجم) وكما لو أنها منفوخة أو متورومة من الأسفل، ويفرز جذعها الرمادي عصارة لبنية ساطعة وكثيفة، وتنثني أغصانها إلى الأعلى، بأوراقها الملتفة، وأزهارها الصفراء الصغيرة، وهي تعطي ثمارًا غير صالحة للأكل تشبه الخيار وتشابه هذه الشجرة Adenium arabicum ذات النمو الأرفع، وهي ربما أكثر مغالاة في سخريتها، فجذوعها غليظة، تشبه قنانٍ ضخمة مكرشة، شهباء اللون، تبدو وكأنها ستنفجر لفيضان سوائلها، ويتفرع عن الجذع الأصلي الواحد اثنان أو ثلاثة سيقان أحيانًا، وتنتهي الجذوع الشبيهة بالقناني المكرشة، بأغصان وأوراق زهيدة ذابلة، ما يكاد يبدأ موسم تفتح الأزهار حتى تتساقط.

إن Adenium arabicum شجرة معروفة ليس فقط في سقطرى، ففي جنوب الجزيرة العربية، وفي بعض الأماكن، توجد أصناف من هذه الشجرة،



لكنها أقصر منها، وارتفاعها لا يتجاوز المتر تقريبًا، بينما شاهدت في سقطرى Adenium بلغ ارتفاعها الخمسة أمتار، ويوجد لدى شقيقتها ذات الارتفاع الأقصر، التي يسميها السقطريون (تريمو) جذع غليظ وأغصان قصيرة نافرة ذات أوراق قليلة صغيرة. وفي مرحلة تفتح الأزهار، لا يمكن رؤية هذه الأشجار تقريبًا، لكثرة الأزهار التي تتفتح مباشرة على الأغصان. ويمكن أن تنمو هذه الشجرة حيث لا تستطيع أن تنمو أية أشجار أخرى، وذلك لقدرتها على امتصاص الماء من التربة والاحتفاظ به في جذعها، كما أن عصارتها سامة، ففي أفريقيا، حيث تنمو أيضًا إحدى أنواع Adenium أُستُخدمت عصارتها في الماضي لتسميم رؤوس السهام - ومن هذه العصارة أفرز ليبرينس موادًا حملت اسم «أدينيين» وهي مثل زهرة الكتشبان تصيب القلب، ومفعولها ضار على الجهاز العصبي المركزي، ومع ذلك فإن سكان سقطرى، يستخدمون عصارة Adenium لعلاج أمراض العيون.

وبالطبع فإن النبات الأكثر غرابة في الجزيرة، هو شجرة «التنين» وهي غريبة في الشكل وفي الاسم، ولها مظلات ضخمة وتبرز في كل الأنحاء، على المنحدرات وفوق الصخور، ويسمى السقطريون هذه الأشجار «أعريوب» وهي بالعربية «شجرة دم الأخوين» ويستخرجون منها الصمغ والصبر، وتوجد عدة روايات عن أصل هذه التسمية، فها هو د.بوتينج ينسب خطأً اكتشافه إلى السقطريين، وفي الواقع فإن سكان الجزيرة لا يعرفون شيئا عن «الأخوين» ولا يستطيعون حتى توضيح فكرة هذه التسمية، بما في ذلك المتعلمون والمتحدثون بالعربية من سكان سقطرى.

اقتبس العرب اسم الشجرة من أسطورة هندية، وهذا ليس بالأمر الغريب، خاصة وإن نتاجات الأدب الهندي معروفة جيدًا للعرب (نتذكر كليلة ودمنة الشهيرة)، وقد كانت سقطرى نقطة ترانزيت بين الهند والعالم العربي. وحسب الأساطير الهندية، فإن التنانين ناصبت الأفيال العداء، في غابر الزمان، وشعرت بشغف لدم الفيلة، فسعت للوصول إلى المكان المنشود وراء الفيل، كي تعض أديمه وتمتص دمه دفعة واحدة. ولكن، ففي ذات يوم، وبينما كان الفيل يموت ويخر صريعا، دهس بجسمه الثقيل التنين، فأمتزج دم التنين بدم الفيل، وسقت دماؤهما الأرض، وقد سمي هذا المزيج «زئبق سولفيد» وأصبح يعرف فيما بعد بقطران «شجرة التنين» وهذه الأسطورة كانت أساسًا للتسمية الإنجليزية للشجرة **dragon's blood** وتعني حرفيا «دم التنين» ويقابلها بالعربية «دم الأخوين»[1].

تنمو شجرة «دم الأخوين» فقط، في المنطقة الجبلية في الجزيرة والتي تسمى حَجْهَر، على ارتفاعات لا تقل عن ٦٥٠-٧٠٠ مترًا، وتمتد من الجذع سيقان

---

(١) ان ربط العرب للأسطورة الهندية بالشجرة السقطرية يقدم شهادة غير مباشرة على الصلات الهندية - السقطرية القديمة. وتشير بعض الوقائع إلى أن الهنود قد عاشوا في الجزيرة في الألف الأول قبل الميلاد. وقد وجد الجنود الانجليز الذين رابطوا في الجزيرة خلال الحرب العالمية الثانية لوحة صغيرة عليها كتابة باللغة الغوجارتية الهندية، وقد سلمت فيما بعد للمتحف العدني، وحتى القرن السابع عشر فإن البحارة الغوجراتيين قد عقدوا زيجات عابرة مع البدويات السقطريات.
وهناك رواية اخرى للأسطورة الهندية عن المعركة بين الفيل والتنين، هي حكاية مشهورة في بلدان البحر الأبيض المتوسط، عن معركة بين القديس جيورجي والتنين.. تُرى، هل يمكن تتبع الارتباط بين هاتين الحادثتين، وبين أن يكون سكان سقطرى قد عبدوا القديس جيورجي في الزمن المسيحي؟!.



مستقيمة في كل الاتجاهات، بارتفاع من ثلاثة إلى خمسة أمتار فوق الأرض، بأغصان كأنها أبر الدواليب، وبين كل عشرين إلى ثلاثين سنتيمترًا تتفرع بدورها وتتشعَّب، وتتشابك بصورة جميلة الأغصان الشهباء مع الأوراق الخضراء، وتكوِّن كثافة من الأغصان والأوراق. ويبلغ ارتفاع الشجرة بكاملها تقريبًا من خمسة إلى ستة أمتار، وتنمو هذه الأشجار في مواقع تبدو كأنها غير مناسبة، على الجلاميد الصخرية، والمنحدرات الضيقة والمائلة والأفاريز، ويوجد أكثر عدد من أشجار «دم الاخوين» في منطقة فريمهن.

يقوم الجبليون بأحداث شقوق في جذع شجرة «دم الأخوين» بالسكين، فينصب من الشقوق صمغ أحمر اللون بكميات كافية، ثم ما إن يتصلب حتى يصبح لونه أسمرَ داكنًا، ويكون على شكل خثرات، ثم تؤخذ القطع المتجلطة فيتم سحقها واستخدامها لعلاج أمراض العيون والأمراض الجلدية، وتستخدم مادةً مطهرةً وموقِّفةً للدم «مثلا عند علاج الجروح»، كما تستخدم أيضًا أصباغًا للزينة، وتقليديًا تُصدَّر كميات «دم الأخوين» عبر عدن إلى الخارج، وهناك يُستخدم هذا الصمغ في صناعة المساحيق ومعجون الأسنان، إذ إنه يقوى اللثة، ويدخل أيضًا في تركيب الأدوية.

في وقت استراحة، تحت مظلة واحدة من أشجار (دم الأخوين) تمكنت بنفسي من جمع بعض خثرات هذا القطران الفريد، الذي يذكرني حتى هذه اللحظة بالرحلة إلى (جزيرة الأساطير).

ينمو في الجزيرة القات البري[1] ولا يستخدمه السقطريون، لكن مفعوله معروف للسكان المحليين: فإبلهم في سعيها للبحث عن النباتات التي تختزن

(١) القات: نبات تمتلك أوراقه عصير ذو تأثير تخديري خفيف، فتستخدم أوراقه للمضغ كمخدر في كل مكان في الجنوب العربي، وبشكل خاص في اليمن واثيوبيا.

الماء في أوقات الجفاف، تقطف أحيانًا من هذه الشجيرات، وإذا ما أكل الحيوان كثيرًا من أوراق القات فإنه يمكن أن يصاب بشلل الأطراف ولذلك يراقب البدو جمالهم بعناية فائقة، حتى لا تمس شجرة القات عند بحثها عن المياه.

البخور السقطري:

وسقطرى - هي أحد الأماكن القليلة في العالم، حيث تنمو أشجار البخور والطيب، ويمكننا في سقطرى أن نجد ستة أنواع من البخور، ومن ثلاثة إلى أربعة أصناف من أشجار المُرّ، وتكثر هذه الأشجار في الجبال، وبشكل خاص في الوديان والوهاد المؤدية إلى قلنسية. وفي الصيف حيث تزهر أشجار المُرّ تمتلئ الوديان بأريج مدهش ومنعش، ومعظم أشجار الطيوب تنمو في منطقة فحير.

لم تعد سقطرى الآن تصدر البخور والطيب ولا المُرّ، لكنها في زمن ما، اشتهرت مع مناطق اليمن في العالم كله، باسم «بلاد الطيب والبخور»، وذلك لأن البخور كان في العالم القديم واحدًا من أكثر المواد قيمة، واستُخدم بكميات كبيرة في أثناء إقامة المراسيم والطقوس الدينية، وفي الحياة العادية.

ذكر «أبُ التاريخ» هيرودوت[1] (القرن الخامس قبل الميلاد): «أن بلاد العرب هي الموطن الوحيد للبخور والمُرّ وخيار شنبر والقرفة (الدارصين) واللادن، وكل هذه الطيوب، باستثناء المُرّ، ينتجها العرب بصعوبة، فللحصول على اللبان الذي يصدر إلى بلاد الفينيقيين يحرقون تحت أشجاره صمغ

(١) هيرود وت: «بحدود ٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م» مؤرخ اغريقي لقب بأب التاريخ. (المترجم)

(الميعة)، وبإحراقه يحصلون على البخور، وتحرس الأشجار التي تعطي البخور أفاعي مجنحة صغيرة الحجم، متعددة الألوان، تتزاحم في كثير من الأماكن حول الشجرة». وللحصول على خيار شنبر، على سبيل المثال «يلبس العرب على أبدانهم ووجوههم جلود الثيران والماعز».. «وينبت خيار شنبر في بحيرات قليلة العمق، تعيش بالقرب منها حيوانات ذات أجنحة كالخفافيش» وتشابه البشر، ويقوم العرب بطردها ويتقدمون لجني خيار شنبر.

ويجنون القرفة أيضا «بطريقة عجيبة؛ حيث تجلب طيور كبيرة عيدانًا جافة يسميها الفينيقيون القرفة، والطريقة التي ابتدعها العرب للحصول على عيدان القرفة هي أنهم يقطعون جثث الثيران الميتة والحمير وسائر مطايا الحمل الأخرى إلى قطع كبيرة نسبيًا ويحملونها إلى ألاماكن القريبة من الأعشاش ثم ينسحبون إلى مسافة بعيدة فتأتي الطيور وتحمل قطع اللحم إلى أعشاشها، لكن الأعشاش لا تتحمل ثقلها فتتداعى وتتدحرج منها عيدان القرفة فيجمعها العرب ويصدرونها إلى الخارج».

«كما يستخرج العرب اللادن، الذي يسمونه «اللادنم» بطريقة مدهشة جدًا، وهو ذو رائحة عطرة خلابة، رغم أنه يوجد في موضع كريه الرائحة، ذلك أنه يلتصق كمادة غروية بلحي التيوس التي ترعى في الأحراج، ويستعمل اللادن كمادة أساسية في عمل أصناف كثيرة من العطور، وهو يحرق عند العرب كبخور».

وما زال البخور مشهورًا جدًا، حتى الآن، في بلاد العرب، فالنساء في شمال اليمن يقمن بعد عادة الحيض بـ«التطيب» بالبخور، ومن كل بد، فإن النساء العربيات يعطرن ثيابهن بالبخور، وفي حضرموت فإن الرجل الذي يرتكب أي

فعل قد يجلب العار للقبيلة، يقوم بمحو خطاه بالاستغفار والتسبيح في ظل أعمدة البخور المتصاعدة. كما يستخدمون البخور عند مراسيم غسل الميت وفي طقوس أخرى.

ويستعمل السقطريون البخور في أغراض العلاج، وفي الحياة العامة، وفي أثناء تأدية العبادات الدينية. كما يقوم العريس بإهداء البخور لعروسته، وتقوم العروسة في الليلة الأولى للزواج بتبخير فراش الزوجية بالمسك والبخور، ثم تنتظر الزوج على الفراش وتواصل إحراق البخور، وفي بعض الاحيان يتم وضع البخور الجاف فوق الرأس.

وشجرة المُرّ شبيهة بشجرة أرز مصغرة، أما شجر اللبان بأغصانها القصيرة الصلبة، وأوراقها المعقوفة قليلة الكثافة والغريبة الشكل فإنها تشبه إلى حد ما «غولًا» يمد مخالبة إلى الأرض. ويصنع البدويون من القشور السميكة لشجرة اللبان في بعض الأحيان السِّلال. وتكون الألياف الخشبية متشبعة بالعصارة بكثرة، ويأخذ القطران بالتراكم في حزوز الشجرة بلونه الأبيض المصفر ورائحته العطرة جدًا، والأزهار قليلة في شجرة اللبان، وثمارها شبيهة بالحبوب الكبيرة.

يجمع السكان المحليون القطران من الأشجار في الصيف، إذ يشقُّون في الأشجار الكبيرة حزوزا من عشرة إلى اثني عشرة وتكون عميقة وملتوية، بحيث تتمزق من تحتها القشور فيأخذ القطران بالتجمع في هذه الجيوب، وخلال شهر تقريبًا يكون القطران قد جف وتصلب فيجمعونه ثم يعملون شقوقًا جديدة أخرى.



وبذات الطريقة تقريبًا، يتم كذلك إنتاج قطران شجرة المُرّ، ويتميز المُرّ بمذاق مرير حاد، وبرائحة عطرية نفاذة، وهو يستخدم ليس فقط كبخور، ولكن يستخدم أيضًا كدواء (في عملية التطهير) وكذلك بمثابة توابل.

إنه مثلما جَعل النفطُ في عصرنا الراهن من بدو الأمس - أنصاف المتعلمين من الشيوخ العرب- أغنى الناس في العالم، كذلك أيضًا كان الأمر في الزمن القديم، حيث جلب البخور الغنى لكل من أنتجه أو تاجر به، ويماثل الإقبال على البخور في العالم القديم، الإقبال على طلب الوقود في الوقت الراهن، فقد كان الكهنة الكلدانيون يحرقون أمام هيكل (بعل) عشرة آلاف طالانت من البخور[1]. وفي أورشليم (القدس) شيدت عنابر ضخمة كي تستوعب هذه الهدايا، كقرابين للآلهة. وفي اليونان تطيبوا بالبخور على شرف (زيفيس)[2]. وفيما بعد قامت السفن المحملة بالبخور برحلات منتظمة إلى روما.

عُدَّ البخور في العالم القديم مقدسًا. ففيه، حسب ما تروى الأساطير، مات طائر العنقاء، وأما الناس فاستعملوه للطهارة الدينية. وعن الطبيعة المقدسة للبخور، تحدث على سبيل المثال المؤرخ الروماني بليني، وهو يذكر أن موسم جمع البخور يبدأ فقط حينما يأتي فأل طيب كإشارة من عند الرب، وقد كان على جامعي البخور طوال هذا الموسم تجنب الاقتراب من النساء، أو حضور الجنازات وغير ذلك مما عُدَّ عملًا غير شريف.

(١) الطالانت: وحدة وزن كانت منتشرة لدى الإغريق والبابليين والفينقيين.. الخ والوحدة منها في اليونان القديمة تساوي ٢و٢٦ كغم - (المترجم).

(٢) رب الآلهة والناس لدى الإغريق القدماء (المترجم).

أما عن استعمال البخور في الجزيرة العربية قبل الإسلام فلا يعرف إلّا القليل، ولكن البخور وجد في بقايا هياكل الأصنام الوثنية التي عبدها العرب، مثل (اللات) في الطائف. ومن النقوش التي عثر عليها في اليمن نعرف أن البخور استُخدم هنا لمعرفة ما إذا كانت الآلهة لا تعترض على هذا العمل أو ذاك، على سبيل المثال، عند بناء منزل جديد أو لوقاية المتوفي من الأرواح الشريرة (يتم وضع المبخرة مع البخور بجانب القبر لطرد الأرواح الشريرة).

وفي الإنجيل، رأى المنجمون نجم بيت لحم، ثم جاءوا بثلاث هدايا إلى المسيح الصغير «ما إن رأوا النجم حتى فرحوا فرحة عظيمة جدًا، فدخلوا البيت ورأوا الطفل الصغير مع مريم، الأم، فانحنوا له ساجدين، وبعد أن فتحوا كنزهم أتوا إليه بالهدايا: الذهب، اللبان، المُرّ» (انجيل متي ٢-١٠-١١)، ويرمز الذهب وفقا للتقاليد الشرقية للسلطة والسيطرة، واللبان للاهوتية، والمُرّ للمقدرة على شفاء الأمراض.

ويحتمل أن المصريين القدماء كانوا أكثر المستخدمين للبخور، ففي حوالي عام ١٢٠٠ق.م تم جلب ٢١٨٩ زيرًا و٣٠٤٠٩٣ برميلًا من الطيوب والبخور إلى معبد الآلهة أمون في طيبة، وكانت قيمتها فلكية، كما استخدم المصريون البخور للعلاج وعنصرًا أساسيًا في الطقوس الدينية. وقد كانت حضرموت والصومال وظفار وسقطرى هي المناطق الوحيدة المنتجة لبضاعة الشرق الرئيسة.

قبل الميلاد بقليل، كتب المؤرخ الإغريقي ديودروس الصقلي[1]، مؤلف «المكتبة التاريخية» عن طيوب بلاد العرب يقول: تفوح في طول البلاد

(١) ديودروس الصقلي: (بحدود ٩٠-٢١ق.م) مؤرخ العصر الهيليني (المترجم).



وعرضها روائح عطر طبيعي... وتنمو على طول الساحل أشجار البلسم والقرفة، وهي نبتة من نوع خاص، لطيفة المنظر عندما تقطع، ولكنها سريعة الذبول. وفي داخل البلاج غابات كثيفة تنمو فيها أشجار البخور والصبر الضخمة وأشجار النخيل والكافور وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية، ويستحيل التعرف على خواص وطبيعة كل واحدة من الأشجار، لكثرة أعدادها ولاختلاط أريجها في رائحة عطرية واحدة، تبدو غامضة وكأنها سماوية، تأسر حاسة الشم وشعور كل من يشمها، حتى المسافرين الذين يمرون بعيدًا عنها لا يفوتهم التمتع بهذه المتعة، وفي الصيف حينما تهب الرياح من ناحية اليابسة تحمل أريج المُرّ وغيرها من الأشجار العطرة، وتنشرها في الفضاءات البحرية القريبة.. ومن يستنشق هذه الروائح العطرية، يخيل إليه أنه تذوق طعام الخلود». وفي وصفه لرحلته في البحر الأرتيري (الأحمر) يتحدث ديدروس عن جزيرة تنمو فيها الكثير من الطيوب العطرة، وكان هناك أيضًا معبد الآلهة جوبيتر[1]. ومن المحتمل أنه قصد فيما كتبه جزيرة سقطرى. لكن بعض الباحثين يرون أن الجزيرة التي وصفها ديدورس كانت تقع عند الساحل الجنوبي للجزيرة العربية وابتلعها البحر فيما بعد بفعل ثوران بركان هدام.

وفي الزمن القديم سار المصريون بقوافل جمالهم المحملة بالبخور في «طريق البخور» العربية، من حضرموت وظفار عبر اليمن إلى ساحل البحر الأحمر، ومن هناك اتجهوا إلى مصر، وآخرون إلى ما بين النهرين، وقد كان المصريون يشترون باستمرار كميات كبيرة جدًا من البخور ويدفعون مقابل ذلك أسعارًا خيالية، ولقد قرروا ذات مرة تجهيز بعثة خاصة لغرض جمع

(١) جوبيتر: في الأساطير الرومانية الرب الأعلى، رب جميع الآلهة والناس (المترجم).



القطران النفيس بأنفسهم؛ ولكي يأخذون معهم إلى مصر بذور الشجيرات؛ بغية إنبات الطيوب عندهم في مصر، ومثل هذه البعثة أرسلت تقريبًا إلى بلاد «بُونت الأسطورية» في الألف الثالث قبل الميلاد، وليس من المستبعد أن تكون هذه أول بعثة بحرية نظمها المصريون إلى «بلاد بُونت» الغنية بالبخور والذهب والفضة، في أثناء حكم الفرعون ساحور من السلالة الخامسة (٢٥٥٣-٢٥٤٤ ق.م)

لم يعثر إلّا على القليل من المعلومات عن هذه الحملة، حتى إنه يصعب القول بثقة في أي اتجاه سافرت بعد الخروج من البحر الأحمر، ولكن ما هو معروف أن المصريين جلبوا معهم عند عودتهم ٨٠٠٠٠ مكيال من المُرّ، و٢٦٠٠ قطعة خشبية ثمينة. وعلى امتداد مئات السنين لم يجهز المصريون، ولا مرة واحدة، مثل هذه الحملة التي جلبت الطيوب النفيسة من «بلاد بُونت». ولقد احتفظ فراعنة السلالة الثامنة عشر بأسطولهم في البحر الأحمر، ويحتمل أن فراعنة السلالة الثانية عشرة قد أخضعوا لحكمهم الشعوب التي تعيش على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، حتى إنهم أنزلوا الأسطول في سواحل الجزيرة العربية. يتحدث هيرودوت عن أحد القياصرة اسمه سيسوستريس قائلا: «سيسوستريس، كما روى الكهنة، كان أول من اتجه على متن السفن الحربية من الخليج الفارسي وأخضع شعوب البحر الأحمر». وهيرودوت يسمى هنا المحيط الهندي بالبحر الأحمر.

أما أكبر حملة أرسلت إلى بُونت ففي عهد الملكة حتشبتسوت في عام ١٤٩٣ ق.م، وتؤكد إبحار هذه الحملة النقوش والرسوم التي وجدت على جدران حائط معبد في دير البحري.

وهكذا فإن المصريين لم يكشفوا لنا سر «بلاد بُونت» التي جلبوا منها الثروات الأسطورية: البخور والمُرّ والقرفة والأشجار، ويصعب الآن تحديد أين كان موقعها حقيقة، وهو ما يضطرنا إلى وضع تخمينات ليس إلاّ. ومع ذلك فالخيار ذاته، أو إذا جاز التعبير، ميدان البحث والتنقيب ليس كبيرًا، إذ ينحصر في الجنوب العربي وسقطرى، أو الصومال.

يعزز أنصار حصر موقع بلد العجائب في سقطرى (وهم حقيقة ليسوا كثيرين) وجهة نظرهم في الحقائق التالية:

أولا: في سقطرى ينمو أكبر عدد من الأنواع المختلفة للبخور والمُرّ، وكذلك الصبر النفيس في العالم القديم، و(شجرة دم الأخوين).

ثانيا: أن البحارة المصريين، حتى وإن اتجهوا إلى ظفار وحضرموت أو الصومال، فإنه لا يمكنهم السفر دون التوقف في سقطرى.

ثالثا: من المحتمل أن المصرين عرفوا عن سقطرى وعالمها النباتي الفريد.

وهنا يورد أنصار فرضية مطابقة «بلاد بُونت» مع سقطرى، حكاية مصرية قديمة، عن المصري الشهير، الذي وجد نفسه بعد تحطم سفينته، في جزيرة عجيبة تنمو فيها الثمار المتنوعة والفاكهة، وتتواجد الطيور والأسماك، وهو يقابل في الجزيرة حية عظيمة[١] يتضح أنها تحكم بلاد البخور، بلاد بُونت، وكذلك هذه الجزيرة، وتساعد الحية المصري بالعودة إلى وطنه. وفي هذه الجزيرة التي يسميها المصري باأنتش- جزيرة الأرواح، تعيش أيضًا خمس وسبعون حية وفتاة واحدة، ويوعد المصري الشهير بمكافأة الحية من كنز

(١) يظهر هنا ارتباط مهم مع إحدى الأساطير العربية، فحواها أن حية تحرس كل شجرة بخور.



فرعون، ولكن الحية ترد عليه: «إنكم لا تملكون المُرّ، وكل ما يوجد لديكم ليس إلّا طيوب متواضعة، ولدي أنا عاهلة الجزيرة مُرّ خاص!، وحتى الطيوب التي توعد بإرسالها ينقلونها من جزيرتنا». وأنعمت الحية على المصري بهدايا ثمينة، بما في ذلك حمولة كبيرة من المُرّ وغيرها من الطيوب.

وفي هذه الحكاية، حقيقة، إشارات إلى سقطرى، فلا توجد جزيرة غيرها تنمو فيها أشجار البخور والمُرّ، وقد كانت سقطرى في الأزمنة الغابرة، ضمن أملاك حكام بلاد البخور أي حكام ممالك اليمن، وحتى فيما بعد فقد دخلت سقطرى ضمن سلطنة المهرة وسقطرى، التي تشتمل عليها كذلك مواطن «البخور».

وهناك شهادة أخرى: ففي الرسوم الموجودة في دير البحري، إلى جانب الحيوانات الأخرى من «بلاد بُونت» رسوم لأبقار صغيرة بدون سنام، ومثل هذه الأبقار توجد حتى الآن في سقطرى (مع أنه في الشواطئ المجاورة لأفريقيا والجزيرة العربية والهند، توجد فقط أبقار ذوات سنام) والمسافة لدى هذه الأبقار من الخيشوم وحتى أصل الذيل متر واحد وعشرون سنتمترًا فقط. وعن السؤال، كيف ظهرت هذه الأبقار عمومًا في سقطرى، فإن مختلف الباحثين يجيبون بصورة مختلفة. ينسب البعض الفضل للبرتغاليين في إدخال هذه السلالة، وهم يفترضون أن الأبقار الضخمة الأوربية الأصل، التي تشبهها الأبقار السقطرية، ربما تلاشت، فتجزأت السلالة. ويعتقد آخرون أن الأبقار دخلت الجزيرة قبل ذلك بزمن أكثر. ويعتقد طرف ثالث أن مثل هذه الأبقار ربما انتشرت أيضًا في مناطق أخرى، في الزمن القديم، ولنقل في جنوب الجزيرة العربية، ولكن أزاحتها فيما بعد سلالة أخرى، فانقرضت هذه الأبقار، وفي كل

الأحوال فإن الأبقار في هذه الرسوم تعطي أنصار الفرضية السقطرية برهانًا جديدًا لصالحهم.

أما معارضو هذه الفرضية (يرى كثيرون أن «بُونت» كانت في الصومال أو في الجزيرة العربية)، فيشككون في أن تكون قد نُقلت من سقطرى،في وقت ما، أصناف الأشجار النفسية، والذهب وجلود الوحوش، (إذا ما اتبعنا الأسطورة المصرية عن بُونت)، بل وبشكل عام في وجود مثل هذه الثروات والزراعة المتطورة في الجزيرة.

توجد أيضًا وجهة نظر أخرى، فحواها أن مبعوثي الفرعون تحتمس الثالث، الذي حكم بعد الملكة حتشيبتسوت، جلبوا أيضًا في العام ١٤٧٩ ق.م. من «بلاد بُونت» (عاج الفيل وخشب الأبنوس وجلود الفهود والعبيد). وطالما أن مثل هذه البضائع أمكن جلبها من اليمن فقط، فإن صفًا من الباحثين يميلون إلى استنتاج مفاده، أن المصريين اطلقوا تسمية «بلاد بُونت» على المناطق التي تقع على جانبي مضيق باب المندب.

إن كل هذا الجدال حول «بلاد بُونت» يزيد الاهتمام بسقطرى أكثر فأكثر، وربما تقع،في يوم ما، براهين جديدة في أيدي الباحثين، تؤكد أنه قد وجدت قديمًا في سقطرى زراعة أصلية، وأن ثروات سكانها كانت في الواقع ضخمة جدًا، وهو ما أثار حولها سيل الأساطير والحكايات والقصص.

والطريف، أن ديدروس الصقلي، صاحب الإثباتات والبراهين ذات التقدير العالي جدًا في مختلف الدراسات، تحدث عن وجود ثلاث جزر: سقطرى، عبد الكوري، وغيرا، أو (بانتشاي، حسب الرواية المنقولة عن التسمية المصرية للجزيرة -بالإنتش)، ومع ذلك فإن قصص ديدروس الأصلية

عن سقطرى، تتداخل مع الأساطير عن بانتشاي، ولا يعرف هنا هل يجري الحديث عن جزيرة واحدة أم عن جزيرتين.

إن سلسلة جبال حَجْهَر، كما أثبت الأبحاث العلمية، تعد واحدة من أكثر البقع قِدَمًا على سطح الأرض، لم تتعرض للغرق في مراحل الطوفانات المستمرة وهيجان المحيط العالمي في العصور القديمة. وما يؤكد هذا، أنه بقيت حتى اليوم في الجبال النباتات (وبدرجة أقل الحيوانات) التي لا نظير لها في مكان آخر من العالم، ومثل هذه النباتات في سقطرى حوالي مائتين صنفًا.

وسقطرى بحد ذاتها متحف للتاريخ الطبيعي، وكانت الجزيرة قبل ملايين كثيرة من السنين تشكل وحدة متكاملة مع القارتين الإفريقية والآسيوية، ثم وقعت واحدة من أقدم الكوارث الجيولوجية، فحولت جزءًا من القارتين إلى جزر، وأغرقت جزءًا كبيرًا من اليابسة، وكونت مجموعات جبلية جديدة، وأعادت توزيع سطح الأرض بين مياه ويابسة أبدية، ونتيجة لذلك أصبحت الهند جزيرة، واقترب المحيط من سفوح هيملايا، وانغمست أيضًا منطقة سقطرى الحالية في الأمواج، ورغم ذلك سلمت جبال حَجْهَر القديمة، وتواصلت الحياة هناك، وكانت مياه المحيط العالمي قد طمرت في ذلك الوقت نصف العالم، ويقول الجيولوجيون إن المحيط تراجع بعد ذلك، ومن الجائز أن سقطرى اتصلت لبعض الوقت مع الجزيرة العربية والساحل الصومالي في أفريقيا بـــ (جسور) برية، ولكن سرعان ما ارتفع منسوب المياه من جديد، فانفصلت الجزيرة عن اليابسة إلى الأبد.

تتواجد في سقطرى كثير من الأصناف المدهشة في عالم النبات والحيوان، وهي تمثل قيمة لا تقدر للعلم، لِقِدَمها وارتباطاتها المنشئية مع الأصناف

في ذلك يعود إلى أن الجزيرة انفصلت عن اليابسة قبل ظهور الحيوانات الثَّدييَّة على الأرض!.

ومن الحيوانات البرية التي تعيش في الجزيرة فقط، التيوس البرية، والحمير و«قط الزباد» المتوحش. ولكن من المحتمل ان كل هذه الحيوانات جلبت إلى الجزيرة في زمن متأخر نسبيًا.

إن الحمار الوحشي سريع جدًا وعدواني جدًا، وحينما رأيت في المروج الجبلية حيوانات رمادية بيضاء جميلة، مع بوز أبيض وخطوط سوداء على المناكب، وجدت نفسي مدفوعا للاقتراب منها بغية تمسيد هذه الحمير المدهشة. لكن السكان المحليين نصحوني بالكف عن ذلك، لأن الحمار الوحشي، كما أوضحوا لي، قد يكون خطرًا، وينظم السقطريون قنصًا متخصصًا للحمير ليستخدمونها فيما بعد مطايا للحمل.

ويظنون أن التيوس والحمير سليلة متوحشة للحيوانات الأليفة التي جُلبت إلى الجزيرة في الزمن القديم، وتعد سلالة الحمير الحبشية النوبية التي جاء بها التجار المصريون إلى الجزيرة في زمن ما، هي بالذات أصل الحمير السقطرية.

وبالمناسبة، فإن الحمير الوحشية (أنا غري) التي لم يتبق منها الآن شيئًا تقريبًا على الكرة الأرضية، قد امتازت كذلك بطبعها الحاد العنيف، وفي الزمن القديم عُدَّ اصطياد الحمير الوحشية خطرًا للغاية مثل اصطياد الأسود.

ولعل أكثر الحيوانات الثَّديَّة أهمية في سقطرى هو «قط الزباد» [1] كما يسميه السقطريون، وهو حيوان شرس للغاية، بحجم أكبر قليلًا من القط

(١) في الواقع أن هذه الحيوانات ليس لها علاقة بالقطط، وهي من سلالة الحيوانات الثديية Viverricala Indica التي جلبت إلى الجزيرة في القرون الوسطى.

المنزلي، وجلده منقش بخطوط بيضاء وسوداء، وذيله أيضًا مخطط بدوائر بيضاء وسوداء، وله قوائم سوداء. يتغذى هذا الوحش بالتمور ويهاجم أحيانًا الطيور الداجنة. وحينما حاول العلماء الإنجليز اصطياد «القط» حيًّا، لم يتسن الأمر لهم بسهولة، لأن «القط» رغم حجمه، يتجنب الفخ بحنكة من خلال الشقوق الضيقة، وبعد أن تم اصطياده سلك سلوكًا وحشيًا للغاية، ولذلك لم يقرر العلماء أخذ هذا الوحش، ذو التَّتانة والفحيح، في أيديهم حتى وهي في القفازات الجلدية السميكة.

ويعد المسك العطري، الميزة الرئيسة لهذا الحيوان، وتفرزه غدد خاصة تقع تحت الذيل، قريب من الشَّرج، ويقوم السكان المحليون بنصب الفخ «للقط» وفيه يضعون التمر بمثابة طعم، وبعد اصطياده يستخرجون المسك بسكينة ثم يطلقون سراحه، ويستخدم المسك في تصنيع العطور المحلية وأدوات الزينة، وتدهن النساء السقطريات وجوههن وأجسامهن بزيت المسك.

إلى جانب هذه الحيوانات، توجد في الجزيرة فقط الفئران والجرذان، ولكن يلفت النظر أحيانًا الحجم الكبير للجرذ، ويحكي السقطريون أن أعدادًا ضخمة من الجرذان توجد في جزيرة بالقرب من سقطرى غير مأهولة بالسكان، وهو الأمر الذي حدا بهم إلى تسميتها بـــ «جزيرة الجرذان».

وفي سقطرى طيور كثيرة إلى حد ما: العصافير، النسور، الصقور، والحمام.. الخ، ولم يتسن لي أن أرى طائر الرخ الأسطوري، الذي نجد له وصفًا في القصص العربية، وكذلك طائر العنقاء.

ولربما وجد في زمن ما نسر كبير سمي بطائر الرَّخ، وحسب ما ترويه الأساطير العربية فإن طائر الرخ حلق فوق الأرض فحجب السماء عمن هم

في الأسفل، وحمل بمخالبه الفيل ووضع بيضًا كبيرًا بحجم الهيكل، ويذهب بعض العلماء الجريئين جدًا إلى الافتراض أن لقاء السندباد بطائر الرخ الخرافي قد جرى في سقطرى.

وعلى الأصح فإن النسر السقطري وجزيرة سقطرى ذاتها، قد أحيطا بهالة من الألغاز والسحر في العهود الغابرة، مما أعطى الزاد لهذه الأسطورة الجميلة.

ولا تقل عن ذلك شهرة، العنقاء، في الحكايات الشرقية، وهي طائر مقدس عند الفينيقيين، وحسب اعتقادهم أنها عاشت خمسمائة إلى ستمائة سنة، وعند الموت طارت إلى مدينة الشمس بانتشيا (أي من التسمية المصرية بإنتش).

كتب بليني عن طائر العنقاء:

«.. هذا طائر عربي بحجم النسر، حول عنقه ريش في غاية الروعة، وجسمه بالكامل أرجواني اللون، عدا ذيله فإنه لازوردي اللون، وتتداخل مع الريش مَسَحَات وردية، ويزدان العنق بعرف، والرأس بذؤابة من الريش، وهو يكرس نفسه لعبادة الشمس، وعندما يتقدم به العمر يقوم ببناء عشه من أعواد القرفة وأغصان البخور ذات الروائح الزكية التي تملأه بالعبير وتمده بالشذى العطري، ثم يضطجع مستلقيًا بجسده مستسلمًا للموت. ومن عظامه ودماغه ونخاعه العظمي تنبت دودة صغيرة تنمو وتتحول بدورها إلى طائر صغير، وأول ما يقوم به هو تشييع جنازة سلفه فيحمل العش جميعه إلى مدينة الشمس...وهناك يضعه في المعبد المقدس، وتستكمل دورة السنة العظيمة من حياة هذا الطائر، وتأتي دورة جديدة مرة أخرى كسابقتها حسب المواسم وظهور النجوم».

وعن العنقاء كتب أيضًا هيرودوت، وأكد أنه لم يرَ طائر العنقاء حيًا، لأنه قلما يصل إلى مصر: يقولون إنه يطير مرة كل خمسمائة عام.

«يطير طائر العنقاء فقط عند موت والده، وإن كانت صورته حقيقة فعلًا، فإن الشكل الخارجي لهذا الطائر وحجمه يكونان هكذا: ريشه ذهبي اللون جزئيًا، مع احمرار بعض الشيء، وهو بمظهره وحجمه قريب الشبه من النسر، وهاكم ما يروونه عنه (رغم أن هذه الحكاية كما يبدو لي غير محتملة الوقوع) فهم يزعمون أن طائر العنقاء يطير من الجزيرة العربية حاملًا معه جسد الأب المدهون بالمر إلى معبد هيليوس[1] حيث يتم دفنه، أما طريقة حمله للأب، فيقوم في البداية بعمل بيضة كبيرة من المر يكون بمقدوره حملها ويجرب كيفية حملها وبعد إجراء الاختبار يثقب طائر العنقاء البيضة ويضع فيها جسد الأب ثم يسد الفتحة المثقوبة من حيث أدخل جسد الأب بالمر مرة أخرى وتغدو البيضة بذلك ثقيلة، وعندها يحمل الطائر البيضة معه إلى مصر، إلى معبد هيليوس، هذا هو ما يقوم به طائر العنقاء حسب الرواية».

إن طائر الرخ والعنقاء الخرافية - طيور جزيرة بانتشاي الأسطورية، التي كانت النموذج الأصلي لجزيرة سقطرى.

ويُعتقَد أيضًا أن التصورات عن سقطرى تجد انعكاسًا لها في الأساطير والقصص عن الجزيرة الغامضة «واق الواق»، التي تحتل مكانة كبيرة في الفلكلور العربي.

(١) هيليوس: آلهة الشمس في الأساطير الإغريقية القديمة. (المترجم)



وإذا قارنا ما كتبه ديودروس الصقلي عن الجزيرتين سقطرى وبانتشاي، حيث تختلط المعلومات الصحيحة بالأساطير، فسوف تبرز معلومات هامة عن الجزيرة. وحسب كلمات ديودروس فإن الجزيرة زودت العالم كله بالمُرّ والبخور وغير ذلك من النباتات العطرية. فقد باع سكان الجزيرة للعرب في اليابسة البخور والطيوب وهؤلاء صدورها بدورهم إلى مصر وسوريا وبلدان أخرى.

سكنت الجزيرة أربع مجموعات من السكان: السكان الأصليون، الإغريق، الهنود، والعرب، وكان بينهم الرعاة، المزارعون، المقاتلون، الحرفيون والكهنة، (ومن البديهي أنه كان بينهم التجار الذين باعوا البخور). هكذا كانت الجزيرة في القرن الأول للميلاد.

ولعله من المنطقي الافتراض أن السقطريين الذين تاجروا بالطيوب الثمينة أصبحوا أثرياء، وهذا يتوافق بالكامل مع الشهادات التي تفيد أن المصريين جلبوا الذهب وغيره من الأخشاب النفيسة من الجزيرة. ومثل هذه البضائع أمكن جلبها من اليابسة، اليمن، إلى الجزيرة مِنْ قَبْل، بالتبادل مع الطيوب (مع ان هذا مشكوك فيه طالما أن في اليابسة ما يكفي من الطيوب).

ويذكر ديودروس معلومات عن ثروة معبد جوبيتر وروعته، المزدان بمجموعات الأعمدة والتماثيل الجميلة. ترى، هل ظهرت حضارة متطورة في هذه الجزيرة؟. حاليًا لا يمكن الإجابة على هذا السؤال ويمكن أن توضحه فقط الاكتشافات الأثرية وأعمال الحفريات والدراسة المفصلة للجزيرة.

أثارت الأساطير عن «جنة النعيم» القلق لزمن طويل لدى القدماء، ولكن مرَّت القرون، وزار البحارة الأوروبيون الجزيرة ووجدوا هناك فقط السكان

الأصليين أنصاف الجياع، ولم يعثروا على أثرٍ لحضارة متطورة. وبقي عالم سقطرى النباتي والحيواني الفريد الذي أعطى الحياة للأساطير عن الجزيرة العجيبة وحافظ على الاهتمام بها. بيد أن روائح البخور والمُرّ العطرة لم تعد تجذب الشعوب إلى الجزيرة، لأن الطيوب في عالمنا المعاصر فقدت قيمتها الغابرة.



الفصل الثاني

من هم السقطريون؟

لم يدرس التاريخ السلالي لسقطرى ولكن يمكن إيراد بعض الحقائق الهامة التي تساعد في تكوين تصور عن سكان الجزيرة.

بين السقطريين يمكن تقسيم بعض المجموعات السلالية والعرقية، بما لا يقل عن ثلاث:

المجموعة الأولى: تمثل الزنوج والمهجنين بسيمائهم الزنجية، وهم سود البشرة، قصار القامة، لوجوههم طابع مميز، وشعرهم أكرت، وكثيرون منهم يُعدُّون أحفادًا مباشرين لسكان شرق إفريقيا، الذين جُلبوا إلى الجزيرة في زمن ما بصفة عبيد أو للخدمة العسكرية. ويقطن هؤلاء في المناطق الساحلية للجزيرة فقط، وهم مستمرون أيضًا في بناء الأكواخ من النخيل كتلك التي يمكن مشاهدتها في الأرياف الإفريقية.

وعلى أية حال، فمن الجائز أن جزءًا من السقطريين السود هم أحفاد الجنود الذين جاءوا من بلدان غرب إفريقيا وخدموا في الجيش الفرنسي، في زمن الحرب العالمية الثانية ممن رابطوا في الجزيرة[1].

(١) وقعت ذات مرة لهؤلاء الجنود حادثة مضحكة، ففي سقطرى توجد بوفرة الصدف البحرية من نوع «كورا» التي كانت في السابق (عملة رائجة) في غرب إفريقيا، فجمع الجنود الأفارقة



المجموعة الثانية: تتألف من سكان السهول السقطرية (هذا التقسيم تقريبي إلى حد ما، لأن هذا النموذج من السكان يعيش أيضًا على الساحل) وهم قصار القامة، سمر اللون، وفي مظهرهم الخارجي فإنهم يشابهون اليمنيين أو الحضارمة.

المجموعة الثالثة: وهم الجبليون المنعزلون عن سكان المناطق الأخرى في الجزيرة، وهم طوال القامة أشداء، بشرتهم فاتحة اللون، وأرجلهم وأذرعهم كبيرة، وشعورهم مستقيمة، ويشابهون الأوربيين في هيئتهم الخارجية.

كشفت بعثة إكسفورد أن السقطريين أساسًا «مستديرو الرأس» أي بما يعني أنهم ينتمون إلى مجموعة الناس الذين يشكل عرض رؤوسهم أكثر من ٨٠ ٪ نسبة إلى الطول، (الغالبية العظمى من العرب ينتمون إلى مجموعة «مستطيلي الرؤوس» الذين يكون عرض رؤوسهم أقل من ٨٠ ٪ نسبة إلى الطول)، وبعض المجموعات فقط، في الساحل الجنوبي للجزيرة العربية، تنتمي إلى نموذج الرأس المستديرة، وفي المقدمة سكان المهرة وظفار، وهؤلاء قصار القامة، ذو بشرة سمراء وشعورهم متجعدة، وهذا ما يؤكد قرابة منشأ سكان المناطق المذكورة.

وبشكل عام فإن مناطق ظفار شبيهة جدًا بسقطرى، فهناك أيضًا تنمو في الجبال أشجار الطيب، ويعيش البدو في الكهوف، ويجمعون التمور ويرعون

= أكياسًا مملوءة بهذه الصدف، على أمل أن يأخذوها معهم إلى بلادهم عند جلائهم عن الجزيرة، لكن القيادة خيَّبت آمالهم، فقد أمرتهم بقذف الأكياس من على متن السفينة، وتحسّر المساكين وكأنهم فقدوا كنزًا حقيقيًا.

الأغنام والماعز، وهم كالسقطريين غير مكترثين بواجباتهم الدينية (يمكن القول كذلك عن سكان مناطق أخرى من اليمن).

اللغة السقطرية:

يتكلم المهريون والظفاريون بلغات قريبة من السقطرية، وهي لغات لا تُعرف في مكان آخر غير هذه المناطق، وبالطبع، فإن منشأ اللغات لوحده غير كافٍ لتأكيد الأصل المشترك للشعوب المتكلمة بها، رغم أنه في هذه الحالة هام جدًا.

إن اللغة السقطرية أقل من غيرها عرضة للتأثير الخارجي. وبشكل خاص تأثير اللغة العربية. وتعد اللغات المهرية والظفارية والسقطرية قريبة المنشأ من اللغات اليمنية القديمة: السّبئيّة، المعينية، الحميرية، والقتبانية. ومن الطريف أن الوشم الذي يوشم به السقطريون إبلهم، يمثل بحد ذاته تحويرًا للأحرف الأبجدية السّبئيّة (أو جزءًا من الأحرف). وقد ذكر الإنجليزي تيودور بينت الذي زار الجزيرة عام ١٨٩٧م أنه وجد في الجبال بالقرب من قلنسية نقوشا سبئية، وجميع هذه المعلومات تضيف براهين تعزز قرابة منشأ السقطريين وسكان اليمن القدماء.

إنه من غير الممكن معرفة أصل السقطريين وصلاتهم الوراثية، دون دراسة تاريخهم ولغتهم، وللتعرف على تاريخ اللغة السقطرية يكون من الضروري معرفة ولو حتى معلومات أساسية عن اللغات السامية بشكل عام، وهذه اللغات، التي مات الكثير منها، تكوِّن ما يُعرف بالإفرو آسيوية أو أسرة اللغات

السامية – الحامية[1]. وهي تنقسم إلى خمسة أقسام: المصرية (اللغة المصرية القديمة)، البربرية (لغات سكان البربر في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى)، الكوشتية (لغات شرق إفريقيا) والتشادية (لغة السودان الوسطى)، والسامية. وتنقسم اللغة السامية بدورها إلى أربع مجموعات لغوية: الشمالية– الوسطى (الآرامية، اليهودية القديمة وغيرها)، الأطراف الشمالية (الأكادية)، والجنوبية الوسطى (العربية)، والأطراف الجنوبية، التي تعد هنا موضوع اهتمامنا. وترجع كل اللغات السامية إلى الأصل المشترك، اللغة السامية القديمة التي انقسمت إلى كثير من اللغات نتيجة التطور التاريخي للشعوب السامية.

وجمعت مجموعة الأطراف الجنوبية للغات السامية، اللغات التي تكلمت بها شعوب اليمن في الزمن القديم وهي اللغات السّبئيّة، المعينية، القتبانية والحضرمية. تكلم بالسّبئيّة سكان دولة سبأ القديمة، وبالمعينية سكان معين، والقتبانية قتبان، والحضرمية حضرموت، وقد وجدت هذه الدول في اليمن في الزمن الممتد ما بين القرن الخامس عشر قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي.

وعدا اللهجات اليمنية تنسب أيضًا إلى مجموعات الأطراف الجنوبية اللغة الأثيوبية القديمة – الجعزية. وقد انتشرت هذه اللغة في شمال أثيوبيا منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد وحتى الألف الأول بعد الميلاد، وفي العام ٣٠٠م تُرجم الكتاب المقدس إلى اللغة الجعزية.

---

(١) المعلومات هنا وما يليها عن اللغات الإفروآسيوية، على أساس تصنيف العالم الروسي الشهير إ.م.دياكونوف.

لماذا تكلم الأثيوبيون باللغة التي ولدت في اليمن؟

في الواقع إن هذا ليس غريبا البتة، لأن السكان الذين قطنوا أثيوبيا في الأزمنة القديمة انحدروا من اليمن، ثم تمازج الغرباء فيما بعد مع السكان المحليين وكونوا بداية هذا النموذج الإثني الذي نعرفه الآن، الأثيوبيون المعاصرون، وحينها انفصلت المجموعة الأثيوبية الأمهرية من مجموعة الأطراف الجنوبية للغات السامية. وحدث هذا فقط بعد أن استوطن العرب الجنوبيون أثيوبيا، ربما مع بداية الألف الأول قبل الميلاد. وما زالت الكتابة الأثيوبية التي أخذت بداياتها الأولى من الشكل العربي الجنوبي للأبجدية السامية القديمة تستخدم حتى الآن في جميع اللغات الأثيوبية.

لقد ماتت اللغات القديمة لمجموعة الأطراف الجنوبية منذ زمن بعيد، ولكن جاءت منها لغات أخرى ما زال بعضها يعيش حتى الآن. وتنقسم اللغات الجديدة لهذه المجموعة إلى فرعين: اليمنية والأثيوبية-الأمهرية. وتنقسم المجموعة الأثيوبية - الأمهرية إلى ثلاثة فروع: الأثيوبية الشمالية، الأقرب إلى الجعزية (تيجر، تيجرنا أو تيجراي)، الأثيوبية الوسطى (الأمهرية، أرجوبا المنقرضة، وجافات الميتة)، ولغات مجوعة جوراجي.

وتشتمل المجموعة اليمنية على المهرية، الشحرية (الحكلية) الحرسوسية والبطحرية، وهي اللغات المنتشرة على شواطئ الجنوب العربي في المهرة (اليمن) وظفار (عمان)، والسقطرية لغة سكان جزيرة سقطرى. وبالطبع، فإننا لا نستطيع الجزم بأن اللغة السقطرية تنحدر بصورة مباشرة من السّبئيّة، وقد يجوز تمامًا أنها تنتمي إلى مجموعة ما من لهجات الأطراف الجنوبية غير المعروفة حاليًا.

توجد في تاريخ العلاقات بين الحضارات اليمنية والأثيوبية، بشكل عام، الكثير من العناصر الهامة التي تتناقص ظاهريا في حالات كثيرة. فالأثيوبيون واليمنيون على سبيل المثال يتنازعون الحق في جعل أنفسهم ورثة الملكة بلقيس، التي ربطت أسطورة الكتاب المقدس الرائعة اسمها باسم الملك سليمان. ويعتقد الأثيوبيون أن الملكة السّبئيّة حكمت في اكسوم، وتروي مختلف أساطير الأدب المحلي الشعبي الأثيوبي قصة سفرها في ضيافة الملك الحكيم، وتنتشر إحدى هذه الروايات لدى شعب التيجري، ودوَّنها بشكل خاص في القرن الماضي المبشر السويدي سوند ستريم. وتنسب الملحمة الشعبية الأثيوبية «كيبرا نييجاست»[1] أصل القياصرة الأثيوبيين إلى هذه الملكة، واليمنيون من جانبهم يرون أن الملكة الأسطورية حكمت سبأ، منطقة في اليمن.

ومع كل ذلك فلن نغوص في الجدال الذي لم يهدأ بين أنصار الأصل الأثيوبي واليمني للملكة السّبئيّة، ولا كذلك في الرأي الذي يعدها شخصية أسطورية، كما نجده في الملاحم الشعبية لمختلف الشعوب السامية الجنوبية. وعمومًا فإن الأسطورة عن هذه الملكة تؤكد وشائج القرابة المتبادلة بين اليمنيين والأثيوبيين، وكذلك صلاتهم القديمة مع السكان الساميين في شمال الجزيرة العربية وفلسطين.

كما تتنازع اليمن وأثيوبيا فيما بينهما شرف تسمية موطن البُن. فلأعوام طويلة عُدَّت اليمن هي التي وهبت البُن للعالم، وذلك لأن البُن انتشر من هنا بالذات إلى كل مكان، وأخذ صنف البُن الشهير «موكا» اسمه من اسم الميناء

(١) تعني سجل مجد الملوك (المترجم).



اليمني المخا. ولكن اتضح فيما بعد أن اليمنيين جلبوا البن من أثيوبيا وبعد ذلك قاموا بزراعته في المدرجات الجبلية، ومن المحتمل ان يكون الرحالة اليمنيون هم الذين جلبوا البن، ولا يستبعد أيضًا أن يكون قد جاء به إلى اليمن العبيد الحبشيون. لقد ذكر الرحالة الإنجليزي بروس في العام ١٦٧٨م في كتابه «رحلة البحث عن منابع النيل» أن الأثيوبيين عند سفرهم المضني لاجتياز الصحراء في الهضاب الحبشية، أخذوا معهم عوضًا عن الأكل كُرَات بحجم بيضة دجاجة صغيرة، ملفوفة بخليط من البن المقلي والزيوت النباتية والدهون، وتحمل هذه المؤنة في مخالٍ جلدية. وكانت واحدة من هذه الكُرات كافية لإسناد قوة الإنسان خلال يوم كامل.

لكن توجد في اليمن رواية تفيد أن البن اكتشفه الرعاة المحليون مصادفة في أثناء مشاهدتهم لمواعزهم التي ما إن تمضغ ثمار أشجار غير معروفة لهم من قبل، حتى تبدأ بالجري والركض بخفة غير عادية.

وبالضبط أيضًا تُدافع كل من اليمن وأثيوبيا عن أولوية كل منهما في استعمال القات الذي لا يُعرف في المناطق الأخرى من الكرة الأرضية.

لقد تواصلت علاقات اليمنيين بالأثيوبيين في مرحلة وجود الدول المتطورة في اليمن. ومعروف أن السبئيين استوطنوا أثيوبيا في المدَّة ما بين سنة ٤٥٠- ٣٠٠ قبل الميلاد، وتعود إلى ذلك الوقت نقوش باللغة السّبئيّة وجدت في أثيوبيا، وفي الحقيقة أنه لم يتسن بعد إيضاح لماذا وضعت النقوش جميعها في المرحلة المشار إليها فقط. كما تظهر لدى الباحثين المتخصصين مجموعة أخرى من التساؤلات، ولكن مما لا شك فيه أنه كان للسبئيين في تلك الأعوام

(رغم أنهم انتقلوا إلى أثيوبيا قبل ذلك بعض الشيء) تأثير ثقافي كبير على الأثيوبيين، ومن الممكن أنهم أسهموا إسهامًا هامًا في الحياة السياسية.

وهكذا فمن بين مائتين إلى ثلاثمائة نقشًا تعود إلى مرحلة ما بين ٤٥٠-٣٠٠ق.م، عثر عليها في أثيوبيا، فإن خمسين نقشًا فقط كتب عليها باللغة الجعزية، وكل ما تبقى باللغة السّبئيّة. ومن المهم أن قسمًا من النقوش كتب بلغة سبئية أدبية صحيحة، وأخرى بسبئية مكسرة تحتوي على عدد من الأخطاء القواعدية، وربما أن هذه الأخيرة قد كتبها الأثيوبيون وليس السبئيون. وعلى هذا الأساس يمكننا الافتراض أن عددًا من الأثيوبيين عرفوا السّبئيّة في تلك المرحلة. ومن الجائز أن النقوش السّبئيّة التي عثر عليها ت.بينتوم كتابات غير واضحة تشابه ما رآه بجانب إكسوم تعود أيضًا إلى تلك المرحلة. ومن المحتمل أن هذا الوقت كان زمن التوسع السبئي في الدول المجاورة، وإلى تلك الأعوام أيضًا يرجع خبر الفيلسوف الاغريقي فيوفراست عن السبئيين، تجار الصبر والند، ومجددا يشتد الخيط إلى سقطرى لربطها باليمنيين والأثيوبيين.

حتى القرن السادس الميلادي وهنت حضارات اليمنيين، وفي العام ٥٢٥م احتل الأثيوبيون اليمن وفرضوا سيادتهم هناك لبعض الوقت، وفي تلك المدَّة هاجر جزء من القبائل اليمنية إلى شمال الجزيرة العربية، إلى سوريا والعراق، وبعض هذه القبائل (على سبيل المثال كندة) اختلطت هناك مع السكان المحليين، وأصبحت فيما بعد أساس قبائل الأقوام الجديدة- العرب.

لكن هل هاجر اليمنيون فقط إلى الشمال وإلى أثيوبيا؟. في «الأوديسا» يتحدث هوميروس عن جزيرة سهيريا (التي يمكن أن تكون نموذجًا لسقطرى) حيث عاشت أقوام من البحارة- الفياكي أو الفياكيون، الذين كأنما جاؤا

إلى الجزيرة من «خارج حدود الأرض»، ويكرر هوميروس في (الأوديسا) معلومات معروفة في الأسطورة الإغريقية عن الفياكيين. ويذكر أبللودور في (المكتبة الأسطورية) أيضًا أن الفياكيين كانوا بحارة ممتازين، وهو ما ينطبق بالكامل على العرب القدماء. ويمتاز الفياكيون عن الشعوب الأخرى كونهم لم يكونوا مقاتلين، وهو ما يقترب أيضًا من السقطريين الأصليين الذين يتصفون حتى الآن بشغفهم للسلام. ويكتب أبللودور أنه حين ساعد الفياكيون الأوديسا للوصول إلى البيت، غضب عليهم باسيدون فأخفى هذه الأقوام (وراء جبال عالية). «الجبال العالية»- هل هذا تطابق من جديد؟ أم أن الفياكيين هم السقطريون القدماء؟!. وربما تعني الإشارة إلى مجيئهم من (خارج حدود الأرض) أنهم وصلوا في زمن ما، من الجزيرة العربية؟.

من الممكن الافتراض أن سكان اليمن القدماء قد جاؤا إلى سقطرى في زمن قديم جدًا، ربما في وقت واحد مع استيطانهم أثيوبيا. ومع ذلك فيمكن أن يكون السبئيون أو غيرهم من القبائل العربية اليمنية قد ظهروا هناك في وقت متأخر، لاسيّما وأن هذا الأمر لم يكن صعبًا على البحارة المجربين.

على أية حال، فإن ظروف استيطان سقطرى، سر الأزمان الطويلة، ولا يستبعد أنه تم إخفاء المنفيين أو رعايا الملك السبئي المغضوب عليهم، وحتى المجرمين في الجزيرة، بصورة غير ودية. ومن الجائز أن المستوطنين السبئيين أو غيرهم من العرب الأصليين كانوا من الفلاحين (أو العبيد؟) الذين أُرسلوا إلى الجزيرة من اليابسة لزراعة الصبر والند وجني صمغ (دم الأخوين).

حينما عَدَّد الفيلسوف الإغريقي فيوفراست، تلميذ أرسطو، سكان الجزيرة العربية، ذكر بينهم (السبئيين) واصفًا إيَّاهم بالمزارعين والمحاربين والتجار

والبحارة، وذكر أن المداخيل الأكثر في نشاطهم جاءت من نقلهم نباتات، إلى البلدان المجاورة، تسمى لاريمانا (الند)، «ذو الرائحة العطرية التي تفوق كل الطيوب الأخرى». أليس الند السقطري هو الذي نقله السبئيون؟ وإن لم يكن كذلك، فمن أين لتلميذ أرسطو، فيوفراست أن يعرف أن سقطرى غنية بالند.

من المحتمل أنه حتى ذلك الوقت (القرن الربع قبل الميلاد) قد جلب السبئيون، الذين استوطنوا سقطرى قبل ذلك بكثير، الشهرة للند، والصبر السقطري.

إن الكثير من المسائل المتعلقة بأصل السقطريين يسهل الإجابة عليها والكشف عنها إذا ما وجد ولو شيء من الآثار المكتوبة.

أشار ت.بينت في العام ١٨٩٧م أنه وجد بنفسه نقوشًا على صخور جبلية، بالقرب من أريوش، التي تقع بالقرب من البحر في الجزء الغربي شمال السهل الساحلي، وقد مات إثر زيارته للجزيرة. أراد الباحثون اللاحقون التأكد من صحة استنتاجات اكتشافه (بينت يرى أن نقوش إريوش في سقطرى، شبيهة جدًا بما رآه في درجات الكنيسة وعلى سفوح التلال القريبة من أكسوم، العاصمة القديمة لأثيوبيا، وهذا التشابه لم يبق لديه ذرة شك في أن هذه النقوش أثيوبية). ويؤرخ بينت لهذه اللقية القرن الخامس قبل الميلاد، انطلاقا من أن الأثيوبيين أمكنهم التواجد في الجزيرة، عند غزوهم للشواطئ العربية الجنوبية (اليمن) سنة ٥٢٥ للميلاد.

في عام ١٩٥٦م، قرَّر عالم الآثار الإنجليزي ب.شيني، عندما عمل في الجزيرة، الوصول إلى هذا النقش ومشاهدته بأم العين، ويعد ما ذكره معلومات هامة بالنسبة لنا: «هذه قرية صيادي اللؤلؤ (دي حانة- قرية في الطريق إلى



إريوش، حيث توقف شيني- المؤلف) وهي في الواقع وبكل بساطة قرية وسخة، والأكثر فقرًا بين كل ما رأيته في سقطرى، معظم البيوت شيدت من علب الصفيح الفارغة، وغطيت بصفائح الزنك المتموجة، التي جاءوا بها من المطار. ومع ذلك فإن السكان أبدوا حفاوة بنا، وخصصوا لنا مكانًا لتناول الطعام، وماءً مالحًا قاموا بغلية من أجلنا، وتمرًا، وهم في سبيل الحصول على التمور يقطعون الجزيرة كلها إلى نوجد حيث يشترون كل رطلين من التمر مقابل شلن واحد، وذلك لأنهم لا يمارسون أي نوع من الزراعة، كما قدموا لنا فيما بعد مياهًا عذبة من تلك التي يجلبها لهم البدو من الجبال بسعر شلن للبرميل الواحد.. ولا بد من الإشارة إلى أنهم يحصلون على مداخيل لا بأس بها في مواسم استخراج اللؤلؤ.

بعد الغداء، دلّنا صاحبنا أحمد على وجهة الطريق، وطلب منا مقابل كل ما عمله من أجلنا عشرين شلنًا. اجتزنا الطريق فصادفنا رجالًا خرجوا لتحيتنا والسؤال عن وجهتنا، ولأن الطريق بدت لنا صعبة، فقد طلبنا من أحدهم اسمه خلف أن يرافقنا، وبعد ضجيج ومساومة طويلة وافق خلف على مرافقتنا مقابل خمسة شلنات..

وصلنا إريوش في منتصف النهار، وبالطبع وجدنا هناك اللوحة الجرانيتية المليئة بالنقوش، وبدت من الانطباعات الأولى، كأنما طبعت عليها آثار أقدام بشر وإبل، ولكن كانت هناك أيضًا علامات أحرف أبجدية ما، تتحد مع بعضها بخطوط ثعبانية طويلة، وبين الفواصل رسوم جبال متقطعة، وبالقرب منها وجدت بنايات مهدمة، ربما كانت منازل مع أفنيتها».

لم يستطع شيني الحصول على تفسيرات واضحة عن أصل هذه النقوش من سكان ديحمض.. وحين سألهم عن رأيهم فيمن يمكن أن يكون قد حفر على اللوحة «بصمات الأرجل»: هل المسلمون أم المسيحيون؟ أجابوا بصورة قاطعة «إن هذه بصمات أقدام الأنبياء، ولا يستطيع الوجود الإنساني أن يترك مثل هذا الأثر».

إنه لا يمكن دراسة تاريخ السقطريين بمعزل عن التاريخ القديم للجزيرة العربية، لأن هذا بالذات يعطي مفتاح اللغز عن أصلهم.

لقد عاش الإنسان في اليمن في مرحلة ما قبل التاريخ، وهذا ما تؤكده اللقايا الأخيرة في محافظة لحج إلى الشمال الغربي لعدن، فقد عثر هنا مؤخرًا بالقرب من جبل تَلَع على آثار محطة قديمة تعود لإنسان العصر الحجري، إذ وجدت أدوات قديمة (قاشطة شعر، رؤوس رماح، وفؤوس ومدية) صنعت قبل ٥٠٠-٢٠٠ ألف سنة قبل الميلاد، وهذه الاكتشافات مهمة ولم تلقَ بعد الاهتمام الكافي والتقييم التام من قبل العلماء، كما أن هذه اللقايا لم تشملها الخارطة الإجمالية لجميع اللقايا التي تعود الى القرن الحجري والتي نشرت في «مرسال اليونسكو». والأمل معقود في أن تعطي عملية البحث والتنقيبات الأثرية في منطقة المحطة نتائج جديدة. وحسب رأي عالم الآثار الروسي س. شيرينسكي، الذي وضع استعراضًا للمواقع الأثرية في جنوب اليمن، وجمع أدوات حجرية بالقرب من جبل طله، فإن هذه النماذج تمثل حلقة اتصال مهمة بين آثار استيطان إنسان العصر الحجري في أفريقيا وفي جنوب آسيا. وتعد الأدوات التي عثر عليها البراهين الوحيدة بعد، على أن الأنسان القديم سكن أراضي اليمن.



وتؤكد اللقايا اليمنية الانتماء الأصلي للسكان اليمنيين، والشك في الرأي القائل بأن اليمن استوطنه أولًا الوافدون من الشمال. وبالطبع فإن هؤلاء السكان اليمنيين الذين شيدوا فيما بعد حضارة أصلية، ربما كانوا أحفادًا غير مباشرين للإنسان العربي القديم، الذي نشأ بفعل اندماج السكان الأصليين مع أحد ما أيضًا. ويصعب الآن الحكم فيما إذا كان السبئيون والحميريون، الذين يتكلمون إحدى اللغات السامية، قد نزحوا من الشمال. أم أن أسلافهم هم أولئك الساميون القدماء الذين انتشروا فيما بعد في الشمال وربما في إفريقيا أيضًا. وفي كل الأحوال فإن آثار النزوح القديم بارزة وملحوظة في تسلسل أنساب القبائل اليمنية.

وفيما يخص أصل الساميين القدماء، فبقدر المعلومات المعينة المتجمعة، قدم الباحثون في هذه المسألة فرضيات مختلفة، فتارة يعد موطن الساميين في إفريقيا، وتارة ما بين النهرين وتارة الجزيرة العربية. وحسب إحدى هذه الفرضيات فإن مثل هذه المنطقة ربما كانت في مكان استطاع فيه الساميون القدماء إقامة صلات مع الهندوأوروبيين. وعلى ما يبدو تشير إلى مثل هذه الصلات مجموعة الجذور العامة الموجودة في اللغات الهندوأوروبية والسامية[1]، ومن هذه المناطق (ربما آسيا الصغرى) تحرك الهندوأوروبيون القدماء على موجتين إلى أوروبا وإلى الهند، حيث اندمجوا مع السكان المحليين ووضعوا البداية للغات الهندوأوروبية المتطورة المنتشرة في الوقت الراهن في أوروبا وآسيا.

---

(١) من هذه الجذور على سبيل المثال كلمة سبعة–cent التي ربما اقتبسها الهندوأوربيون من الساميين، وتشهد على هذه الصلات مجموعة أخرى من الوقائع اللغوية.



هل سكن الإنسان سقطرى في العهود الغابرة؟. لا توجد براهين تثبت وجود الإنسان هناك. ولذلك فإن الباحثين، وعلى الأخص، قيادة البعثة العلمية المتكاملة في عام ١٩٦٧م د.وو، و ب. بوكسهول، يعتقدون بصحة أن الإنسان سكن الجزيرة في وقت متأخر إلى حد ما بغية الحصول على البخور حينما كان «ذهب الشرق». وكما هو معروف فمع القرن الرابع الميلادي انخفض بشدة الطلب على هذه البضاعة، وفقدت «طريق البخور» الشهيرة في اليمن أهميتها، وربما اضطر السقطريون في وقت ما إلى الاعتماد بالكامل على تربية الماشية والأغنام وصيد الأسماك، وهو ما أدى إلى عواقب مؤسفة.

إنه إذا ما جمعنا المعلومات المتناثرة التي وصلت إلينا عن السقطريين، وأضفنا إليها ما هو معروف عن لغتهم (مع حرية إطلاق العنان بعض الشيء للخيال)، فيمكن أن نتصور تاريخ استيطان الجزيرة على النحو التالي:

في زمن ما، قبل آلاف كثيرة من السنين، قطن الجزيرة العربية الشعب السامي القديم، سلف الأشوريين، البابليين، السبئيين، الحِمْيَريين، الآراميين، الكلدانيين، الفينقيين، الأثيوبيين، اليهود، والعرب. ومن الواضح أن هذا الشعب كان على الأرجح رعويًا، وعدا تربية الماشية في البادية، مارس صيد الأسماك (في شواطئ مناطق البحر الأحمر والبحر العربي) ونتيجة لعدد من الأسباب الموضوعية سرعان ما نزح هذا الشعب إلى خارج الجزيرة العربية، وهاجرت مختلف القبائل السامية إلى مصر، حيث اندمجت مع السكان المحليين، وكونت قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد شعبًا جديدًا، هم المصريون القدماء الذين شيدوا الحضارة العظيمة المشهورة في العالم أجمع.

واتجهت الموجات الأخرى للهجرة إلى الشمال، إلى ما بين النهرين، وفي ذلك الوقت كان قد استقر هناك شعب آخر رفيع التطور غير سامي الأصل، هم السومريون، وقد اندمج الساميون الرحل مع السومريين، ونتيجة لهذا الاندماج ظهرت في وادي دجلة والفرات حضارة جديدة، هي البابلية.

لقد أرست الحضارة المصرية وحضارة ما بين النهرين لحضارة البحر الأبيض المتوسط، وتوقف عليها دور كبير جدًا في قيام الحضارة العالمية المعاصرة.

وفي الجنوب العربي، في ذلك الوقت، استمر السكان الأصليون في العيش، والتحول بصورة مستقلة إلى نمط الحياة الحضرية، فمارسوا الزراعة، واتحدوا في الدول المتطورة في جنوب الجزيرة العربية: السّبئيّة، المعينية، القتبانية، الحضرمية والحميرية. وحتى ذلك الزمن كانت الشعوب السامية قد أخذت تتحدث بلغات مختلفة، تبعد الواحدة عن الأخرى أكثر فأكثر، وتعرض التركيب السلالي لهذه الدول للتغيير، إذ جاءت موجات الهجرة من شمال الجزيرة العربية إلى الجنوب العربي، وربما من فلسطين أيضًا. وليس مصادفة ان انتشرت في وقت متأخر، على وجه الخصوص في العربية الجنوبية، اليهودية التي كانت قد ظهرت لدى القبائل اليهودية في فلسطين.

ماذا حدث بالذات لعرب الجنوب الأصليين القدماء، بعد وصول الساميين الشماليين؟ إن الجزء الأكبر منهم، بالطبع، اندمج مع القادمين الغرباء وشكلت هذه الطبقة الأساس للسبئيين والمعينيين وغيرهم من الأقوام.

ولكن يمكن الافتراض، أنه لم يندمج كل سكان اليمن مع قبائل شمال ووسط الجزيرة العربية، لأن جزءًا من السكان الأصليين عاش في المناطق

النائية، صعبة البلوغ، في المهرة وظفار وأبحروا أيضًا إلى سقطرى، وعلى هذا الأساس يكون السكان الأصليون لليمن أول سكان جزيرة سقطرى.

وإذا كانت سقطرى هي «سفينة نوح» التي حفظت نباتات وحيوانات ما قبل التاريخ، فقد كانت المهرة وظفار وسقطرى ملاجئ واصل فيها الحياة، بعزلة تزيد أو تقل، أحفاد أولئك الذين سكنوا اليمن في الأزمنة الغابرة.

وهناك وجهه نظر، تعد مربي الماشية السقطريين، والظفاريين والمهريين الذين سكنوا الكهوف ورعوا الأغنام والماعز وعرفوا الزراعة، هم «العرب الأصليين» أي أنهم السكان الأصليون الحقيقيون لليمن. وفي الحقيقة، فإن أنصار هذا الرأي لم يستطيعوا بعد تقديم براهين مقنعة، لكن ما يُسند هذا الرأي الكثير: لغز اللغة السقطرية، وجود أبقار بدون سنام، والتشابه اليسير للسقطريين مع العرب...الخ.

وقد استطاع السكان الأصليون للجزيرة العربية الإبحار من رأس فرتك[1] إلى سقطرى وأنشأوا هناك أولى الأماكن المأهولة. وللتأكد من صحة هذه الفرضية ينبغي القيام بدراسة سلالية وأثرية متكاملة لسقطرى والمهرة وظفار.

ويبقى من غير الواضح، لماذا أضاع البحارة الماهرون للغاية، كالمرتحلين العرب القدماء، بالكامل فنونهم الملاحية، ربما أن ما أعاقهم في الحفاظ على هذه الفنون، هو انعدام الأشجار الضرورية لصناعة السفن في الجزيرة؟ وفي كل الأحوال فإن اقتصاد الجزيرة في الأزمنة القديمة قد اعتمد أساسًا على المساهمة في التجارة العربية للبخور، وفي رعي الماشية والأغنام وصيد الأسماك. كما أن من غير المعروف ما هو مستوى الثقافة الذي بلغه هذا

---

(١) رأس فرتك - رأس على شاطئ اليمن، في محافظة المهرة، يقع مباشرة في مواجهة سقطرى.



الشعب، وفي أي مستوى كان في تلك المرحلة حين وصل إلى الجزيرة. وتؤكد النقوش السّبئيّة بالقرب من قلنسية، والكتابات غير المفهومة في أريوش، أن جزءًا من هؤلاء السكان قد عرف الكتابة.

وهكذا، لنفرض أن سكان الجزيرة العربية، الذين برعوا في الفنون الملاحية، قد وصلوا إلى الجزيرة كتجار. ومعرف من الإرشاد الملاحي المعروف باسم «الطواف حول البحر الإرتيري» الذي كتبه أحد الإغريقيين في القرن الأول للميلاد، أن الاستيطان اللاحق للجزيرة قد تم في القرن الأول للميلاد، ويذكر مؤلف «الطواف» أن: «السكان ليسوا كثيرين، ويقطنون الشواطئ الشمالية... وهم غرباء وخليط من العرب والهنود والإغريق، الذين سكنوا الجزيرة للقيام بالتجارة هناك».

وعلى هذا النحو، فإن الإرشاد القديم للبحارة لم يتحدث بشيءٍ عن السكان الأصليين الذين ربما عاشوا في الجبال، وتحدث فقط عن خليط التجار الوافدين إلى الشواطئ الشمالية للجزيرة. وفي الحقيقة، أنه طالما أن مؤلف «الطواف» قد سمّى الوافدين بـــ «الغرباء» فيمكن أن نستنتج أنه كان في الجزيرة أيضًا سكانٌ أصليون، ومن الجائز تمامًا أن السكان الأصليين عاشوا قبل ألفي سنة في جبال سقطرى، كما هو عليه حالهم الآن، في الكهوف والمساكن المكونة من الأحجار ومارسوا الرعي بصورة رئيسة، ولم يعرف المستعمرون والتجار الإغريق والرومان والهنود في الساحل، عن وجودهم شيئًا. وهذا ما يجد له إثباتًا جزئيًا فيما ذكره المؤرخ الإغريقي ديودورس الصقلي، الذي يرجع تاريخه إلى عدة أعوام سابقة، فكأنما إلى جانب التجار الوافدين الغرباء عاش هناك «السكان الأصليون لهذه البلاد».



في الأزمنة القديمة بدت الرياح الموسمية، التي تهب في المحيط الهندي، لغزًا للبحارة، إلّا أن الربان الإغريقي هيبال اكتشف قبل مائة عام من الميلاد تقريبًا سر هذه الرياح، التي تتغير اتجاهاتها حسب الموسم، فقد تمكن من استخدام ملاحظاته في الملاحة، وأبحر هيبال في الصيف من ميناء على شاطئ في شرق إفريقيا تسوقه الرياح، ووصل إلى الهند سالمًا، وفي الشتاء عندما تهب الرياح في الاتجاه المعاكس عاد إلى موطنه، وفيما بعد أصبحت السفن الشراعية الإغريقية- الرومانية تجتاز المسافة من مصر إلى الهند خلال شهرين، وكانت هذه السفن تنقل الشحن التجاري والركاب معًا، واتجه بعض هذه السفن إلى الجنوب، إلى شواطئ شرق إفريقيا، حيث تم إنشاء أولى المستوطنات التجارية الرومانية.

لقد مرت الكثير من السفن التجارية في سقطرى، ونعرف من المؤلفات الإغريقية - الرومانية أن العالم القديم قد عرف عن الجزيرة في العام ٣٠٠ق.م، وتوجد في المصادر الرومانية- الإغريقية معلومات تفيد أن الجزيرة قد كانت مركزا تجاريا هامًا قبل العصر الإغريقي- الروماني أيضًا. وربما كانت سقطرى منذ القِدَم محطة ترانزيت لإعادة نقل الشحن إلى وسائل نقل أخرى في التجارة بين الهند ومصر.

وفي «الطواف حول البحر الإرتيري» وصف تفصيلي للجزيرة، وهي تسمى هنا ديوسقوريا. وأصل هذه الكلمة حسب إحدى الروايات، من السنسكريتية أو السينغالية (دفيبه سكحدار) «بلاد النعيم». ومن هنا بالذات جاءت تسمية «سقطرى»[1]

(١) في رواية أخرى فإن اصل اسم الجزيرة مشتق من العربية، سوق- قطر، أي سوق قطر (دم الاخوين) الذي يجلبه العرب من الجزيرة.

كما يعتقد بعض الباحثين. وقد كتب بحار إغريقي غير معروف الاسم: «ديوسقوريا كبيرة جدًا، لكنها قفراء، كثيرة المستنقعات، وفيها العديد من الأنهار حيث تعيش التماسيح وكثير من الأفاعي والحراذين الكبيرة التي يأكلون لحمها، أما شحمها فيذوّبونه ويتم استخدامه عوضًا عن زيت الزيتون، ولا تنتج الجزيرة لا الفاكهة ولا النبيذ ولا الحبوب، وسكانها قليلون، يقطنون على الشاطئ إلى الشمال... وهم غرباء وخليط من العرب والهنود والإغريق الذين جاءوا إلى هنا لممارسة التجارة، وفي الجزيرة يستخرجون سلاحف بحرية أصلية، وسلاحف بيضاء بأعداد كبيرة جدًا، وهي تعد الأفضل بدروعها الكبيرة، وسلاحف جبلية وهي أضخم السلاحف ولها دروع سميكة جدًا، ولا فائدة من هذه الدروع لصلابتها الفائقة جدًا بحيث يستحيل قطعها، وتُثمّن فقط تلك الدروع التي يمكن قطعها لتصنع منها الأواني وصحون الأكل والأوعية الأخرى. وفي الجزيرة يحصلون أيضًا على دهان الزنجفر المسمى الهندي ويتم جمعه بالقطرات، وربما أن ملك بلاد البخور يحكم الجزيرة. كذلك يمارس التجارة هناك أولئك الذين جاءوا من داميريك وباري غاز (ميناء قديم في مصب الهندوس- المؤلف)، وهم يجلبون الأرز والقمح والثياب الهندية وبعض الجواري، ويصدرون كميات كبيرة من دروع السلاحف».

من غير المعروف درجة صدق هذه المعلومات التي ذكرها المؤلف الإغريقي عن سكان الجزيرة وحيواناتها المحلية الخاصة بها. وإلى الآن ففي الجزيرة يصطادون السلاحف البحرية وبكثرة إلى حد ما، ويمكن التسليم بحقيقة أن سقطرى في الزمن القديم صدَّرت للعالم القديم، الروماني والإغريقي، دروع السلاحف.

ولم يبق أثرٌ للتماسيح وكذلك الحراذين الكثيرة، والسلاحف البرية العديدة، ومن المشكوك فيه أن تكون قد وجدت هنا في زمن ما، والأقرب إلى الصحيح أن الحديث عن السلاحف البيضاء الضخمة هو ثمرة خيال المؤلف، وقد فتش علماء إكسفورد في زوايا كثيرة من المغارات والكهوف على أمل الحصول ولو حتى على بقايا من السلاحف البرية الضخمة، المشابهة لتلك التي توجد في جزر جالاباغوس، ولكن بدون نتيجة. ونستنتج فقط من وصف مؤلف «الطواف» أن دروع السلاحف كانت بضاعة نفيسة جدًا في العالم القديم. وقد عُدَّ هذا مبررًا كافيًا لزيارة الجزيرة.

من المعروف أن سقطرى أدت دورًا مباشرا ومحددا في التجارة العالمية.

كتب الجغرافي العربي الشهير في القرون الوسطى ياقوت الحموي (توفي سنة ١٢٢٨م) في مؤلفه (معجم البلدان) عن سقطرى:

«سقطرى، اسم جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تناوح عَدَن جنوبيها عنها، وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهند، والسالك إلى بلاد الزنج يمر عليها، وأكثر أهلها نصارى عربٌ، يجلب منها الصبر ودم الأخوين، وهو صمغ شجر لا يوجد إلّا في هذه الجزيرة ويسمونه القاطر، وهو صنفان، خالص يكون شبيها بالصمغ في الخلقة، إلّا أن لونه كأحمر شيء خلقه الله تعالى، والصنف الآخر مصنوع من ذلك؛ وكان أرسطاطاليس كتب إلى الأسكندر (المقدوني) حين سار إلى الشام في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها وأرسل إليه جماعة من اليونانيين ليسكنهم بها لأجل الصبر القاطر الذي يقع في الأرياجات فسير الأسكندر إلى هذه الجزيرة جماعة من اليونانيين وأكثرهم من مدينة ارسطاطاليس وهي مدينة اسطاغرا في المراكب بأهلهم وسيرهم في



بحر القلزم (البحر الأحمر) فلما حصلوا بها غلبوا من كان بها من الهند وملكوا الجزيرة بأسرها، وكان للهند صنم عظيم فنقل ذلك الصنم إلى بلاد الهند في أخبار يطول شرحها، فلما مات الأسكندر وظهر المسيح بن مريم عليه السلام تنصر من كان بها من اليونانيين وبقوا على ذلك إلى هذا الوقت، فليس في الدنيا موضع والله أعلم فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم ولم يداخلهم فيها غيرهم غير أهل جزيرة سقطرى، وكان يأوي إليها بوارج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجار فأما الآن فلا».

وكما نرى فإن ياقوت يكرر الرواية الإغريقية المعروفة عن الإغريقيين الذين سكنوا الجزيرة ونشروا المسيحية هناك. وفي ضوء كل هذه المعلومات، نقول فقط، إنها تحتاج لأثباتها بشهادات من خلال التنقيبات والحفريات الأثرية، ولكننا نقول بثقة إن الإغريق والهنود ومن المحتمل الغرباء الأكثر قِدَما قد أسهموا بنصيبهم في حياة الجزيرة المعروفة للعالم القديم بأجمعه.

وفي ما ذكره ياقوت ملاحظة تستحق الإشارة، تتعلق في كون سقطرى كانت قاعدة انطلاق لـــ «بوارج الهنود الذين ينهبون المسافرين من التجار»، ويصب التأكيد هنا بأن هذه المراكب كانت هندية بالذات، أما أن سقطرى قد كانت في القرنين التاسع والعاشر للميلاد مركزًا للقرصنة البحرية فهو أمر وارد، وعلى أية حال، فإن كثيرًا من الجغرافيين العرب يكررون هذا النبأ.

كتب المؤرخ اليمني الشهير الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (توفي ٩٤٥م):

«مما يجاور سواحل اليمن من الجزاير جزيرة سقطرى، وإليها ينسب الصبر السقطري، وهي جزيرة بربر مما يقطع بين عدن وبلد الزنج فإذا خرج الخارج

من عدن إلى بلد الزنج أخذ كأنه يريد عمان وجزيرة سقطرى تماشيه عن يمينه حتى ينقطع ثم التوى بها من ناحية الزنج وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخًا[١] وفيها من جميع قبائل مهرة وبها نحو عشرة آلاف مقاتل وهم نصارى، ويذكرون أن قومًا من بلد الروم طرحهم بها كسرى ثم نزلت بهم قبائل من مهرة فساكنوهم وتنصر معهم بعضهم، وبها نخل كثير، ويسقط إليها العنبر وبها دم الأخوين وهو الأَيْدَع والصبر الكثير، وأما أهل عدن فيقولون إنه لم يدخلها من الروم أحد، ولكن أهلها الرهابنة، ثم فنوا وسكنها مهرة وقوم من الشراة[٢]، وظهرت فيها دعوة الإسلام، ثم كثر بها الشراة فعَدَوْا على من بها من المسلمين وقتلوهم غير عشر أناسية وبها مسجد بموضع يقال له السوق».

يذكر الهمداني هنا طريقًا بحرية معروفة من عدن إلى شرق إفريقيا، فقد اتجهت سفن البحارة العرب في البداية إلى الجنوب الشرقي ثم دارت حول سقطرى وسارت إلى أفريقيا.

ومن المهم أن الهمداني يكرر هنا معلومات معروفة عن «الروم» الذين سكنوا الجزيرة، وقد سمُّوا آنذاك بيزنطيين (أي سكن شرق الإمبراطورية الرومانية) وفي ذات الوقت يبدي الشك بهذا الصدد.

ومن المهم الإشارة إلى صراع الخوارج[٣] مع المسلمين السنة[٤]،

(١) الفرسخ: مقياس عربي للمسافة يساوي تقريبًا ستة كيلومتر.

(٢) الشُّراة: جمعُ شارٍ وهم فرقة من الخوارج جاوزا الحد في المغالاة بالدين، سموا بذلك لأنهم على زعمهم شروا أنفسهم من الله (المترجم).

(٣) الخوارج: فرقة (دينية) إسلامية، ظهرت في القرن السابع الميلادي ويرفع الخوارج فكرة مساواة كل المسلمين (عرب وغير عرب) ويطالبون بانتخاب القيادات الدينية والسياسية للدولة الجماعية الدينية.

(٤) السنة والشيعة: الاتجاهان الرئيسان في الإسلام، ظهرا مباشرة بعد انتشار الإسلام،



ولـم يعـد للخـوارج وجـود في الجزيـرة، وينتمـي كل السـقطريين الآن إلـى السـنة، المذهـب الشـافعي، وعـاش هنـاك في عهـد السـلطان عـدد مـن الحنابلـة[1] المنحـدرون مـن عمـان، وعـدد مـن العجـم الشـيعة ولـم يعـد لهـم وجـود الآن.

لقد سعت بعثة إكسفور للعثور على أي أثر كان لتواجد الإغريقيين في الجزيرة، ولم تحصل على أي شيء، عدا بقايا بعض النباتات في بلدة تسمى سوق (بالسقطرية - شيوك)، التي يُعتقد أنها كانت عاصمة لسقطرى في الماضي. أما الآن فإن سوق قرية صغيرة، معظم سكانها من أصول إفريقية ويعيشون في أكواخ من القش أو في بيوت شُيِّدت من شظايا الشعب المرجانية. ولأن سوق تقع على شاطئ الخور فيحتمل أن السفن قد مرت هنا في الزمن القديم، وهنا أيضًا كان قد عاش الإغريقيون الأيونيون الذين كتب عنهم المؤرخون العرب والإغريقيون.

وجد الباحث الإنجليزي ن.أور في جبال سقطرى أطلال بناية، بناها دون شك شعب أكثر تطورًا من سكان الكهوف الحاليين، ومع ذلك لا يمكن التأكيد أن هذه أطلال مبانٍ مسيحية تحديدًا، ويعتقد أور أنه كان هنا مصلى حجري.

يبدو لي أن وجود مستعمرة إغريقية في الجزرة حقيقة مسلم بها، ومن المحتمل أن الإغريقيين خاصة دفعوا السكان الأصليين لاعتناق المسيحية.

= يرجع السنة في المسائل الدينية إلى القرآن والسنة (الأحاديث النبوية)، والشيعة إلى جانب ذلك يعطون أهمية رئيسة للزعماء الروحيين الأئمة الذين يجب أن يكونوا من أحفاد علي بن أبي طالب.

(١) الحنابلة والشافعيين: اتباع مدرستين من أربع مدارس سنية، والحنبليون من المدارس الأكثر تشددًا.



متكاملة لا بد من إجراء مقارنة في تحليل الدم لكل الجماعات السكانية في الجنوب العربي، وبشكل خاص المهريين والظفاريين، ومن المهم إثبات قرابة السقطريين والمهريين والظفاريين إذ إن منشأ لغاتهم والوحدة التاريخية تؤكد أنهم أقوام قريبة النسب بعضها من بعض، ومع ذلك فليس بالمستغرب أن يحمل إلينا العلم مفاجآتٍ أيًّا كانت.

ذات مرة وقفت على ساحل البحر قبيل غروب الشمس، في الخور المحاط ببيوت قرية سوق الصغيرة، أتأمل في التاريخ السقطري في مختلف العصور:

ها هي سفن قديمة عجيبة تبحر إلى الشاطئ، يسمع منها الحديث المصري.. إنهم تجار البخور جاءوا من مصر القديمة إلى «بلاد بُونت».. إلى الشاطئ يذهب حرسهم وعبيدهم حاملين حزم البضائع.. وتمر القرون فتطأ الجزيرة أقدامُ المحاربين اليونانيين والجنود الرومان.. ومن الشرق تسارع السفن الهندية، تدفعها الرياح الموسمية السريعة، محملة بالحبوب والجاريات، وفي الشاطئ تنتظر الهنود دروع السلاحف وأكياس صمغ «دم الاخوين».. ومن جديد تتغير الشخوص، فها هم البحارة العرب الذين لوَّحت سيماهم الشمس، ينزلون في المرسى، طافحين عزمًا وحزمًا لنشر الدين الإسلامي بين سكان الجزيرة.. هنا في الوقت الحاضر، مكان مقفر هادئ، وطبقات الماء الخفيفة تضرب بالكاد في أمواج عند الشاطئ.. وببطء تميل الشمس للغروب فتغدو أرجوانية اللون وتنعكس على صفحة الماء فيصطبغ كل ما يحيطها بلون قرمزي عميق، تذكرنا هذه الألوان بالماضي الدموي لجزيرة البخور.



الفصل الثالث

أفضل سحرة في العالم

اشتهرت سقطرى منذ القدم بـ«الجزيرة السحرية»، والاسم المصري القديم للجزيرة - با - انتش- يعني «جزيرة الأرواح» وكانت الأرواح والساحرات والجن والسحر دائمًا مفاهيم مألوفة بالنسبة للسقطريين.

كتب ماركوبولو في القرن الثالث عشر الميلادي:

«ينبغي أن تعرفوا أنه في هذه الجزيرة يعيش أفضل سحرة في العالم ويمنعهم رئيس الأساقفة من ممارسة هذا العمل ما أستطاع إلى ذلك سبيلا، ولكن بدون جدوى، لأنهم يعتقدون أن أجدادهم قد مارسوا ذلك أيضًا، وأن واجبهم مواصلة هذا العمل... وسأقدم لكم نموذجًا من سحرهم، فإذا ما خرجت السفينة في الرياح المواتية وأبحرت بعيدًا فإنهم يرسلون الرياح المعاكسة والعواصف ويعيدونها إلى الوراء. أية رياح يريدون يرسلونها هنا، وتوجد أنواع أخرى من أسحارهم ولكن يستحسن أن لا نتحدث عنها في هذا الكتاب».

ألا يجوز أن ماركوبولو قصد، بالأنواع الأخرى من السحر، المفاتن السحرية للحسناوات السقطريات؟! أم طريقتهن السرية في التحول إلى وحوش بحرية؟ إذ ما زالوا في سقطرى يتحدثون حتى الآن عن عدد من النساء اللاتي كأنما يقمن بتعقب الناس عند حلول الظلام ويفترسنهم. ويعتقد السقطريون

أن عفريتًا يسمى (مااليارد) يتخذ في الظهور هيئة خفافيش وطيور، وأن أحد الجن يظهر في أثناء الليل في الخور قرب حديبو... وفي عهد ماركوبولو نفذ عمليًا حكم إعدام مخيف، إذ يقيد الشخص المشتبه بالسحر ويترك لمدة ثلاثة أيام في رابية، فإذا هبط المطر خلال هذا الوقت، عليه أو بالقرب منه، فإنهم يقومون برجمه بالحجارة حتى الموت. ولا تقل شناعة عن ذلك مراسيم طلب المطر، فحين يحل الجفاف، يختارون الضحية بالقرعة، ويتركونها في وسط دائرة من الأقرباء، ويرفعون الدعاء والابتهالات للقمر، وإذا لم يبدأ المطر بالهطول، قاموا بقطع يدي الضحية.

وحتى في القرن التاسع عشر فإن البدويين ذكروا تفاصيل طقوس عبادة القمر التي وجدت في وقت ما لدى أسلافهم، ويروون أنهم في بداية الصيام وفي موسم الجفاف أو عند الكوارث الطبيعية قد اتجهوا بالأدعية إلى القمر في معابدهم وكهفوهم، وكذا عند دفن الموتى. وكان تقديم القرابين وإحراق البخور من بين الطقوس التي اتبعت عند ظهور أو أفول القمر، وفي تعداد الأدعية التي اتجه بها سكان الجزيرة إلى القمر الليلي المضيء الطلب إلى القمر أن يحافظ على سكان الجزيرة من الاندماج مع الغرباء. وسنويًا سارت مواكب السقطريين حول المعابد، حاملين أمامهم الصليب، وإذا أراد الكاهن إظهار سخط الكواكب من الأدعية، فإنه يعطي أمرًا بقطع أصابع الشخص الذي يحمل الصليب وهو يعد شهيدًا فيما بعد.

وإلى الآن بقيت في اعتقادات السقطريين وعاداتهم آثار عبادات الكواكب والنجوم التي كانت منتشرة في الزمن القديم بين سكان اليمن، من السبئيين

والحِمْيَريين، وحتى الآن، فإذا ما وقع الجفاف فإن سكان القرى الجبلية يجتمعون عند الشفق في المروج، يرددون الأناشيد الابتهالية وينحرون ضحية من الأغنام، ومع أن الجبليين يتجهون بدعائهم إلى الله لإنزال المطر، فإنه ليس من الصعب الحدس أن الله هنا يحل محل الآلهة القديمة، القمر. وبالمناسبة فإن القمر يعد من الكواكب التي يجلها العرب ورثة السبئيين والحِمْيَريين إلى الآن.

وفي سقطرى يوجد سحرة يحرزون البخت من خلال القمر والنجوم، ويعتقد السكان المحليون، أن باستطاعة هؤلاء السحرة معرفة مصير الإنسان وكذلك استجلاب المطر أو إرسال الأمراض للإنسان أو البهائم[١].

ويمكن تتبع آثار العبادات القديمة في طقوس أغاني السقطريين، فحتى الآن تحتل الأغاني مكانة هامة وكبيرة في حياتهم، وترافق الأغاني سكان الجزيرة في كل مكان، في الأعراس وفي المآتم، وعند هطول الأمطار وفي مواسم الجفاف.. الحياة والموت، الأفراح والأتراح، جميعها مصحوبة بالتغاريد والأغاني، ولكل حدث أغانيه الخاصة. ومن دون شك فإن دراسة الفلكلور السقطري يمكن أن تكشف النقاب عن ماضي اليمن، كواحدة من المناطق التي شهدت في الماضي ميلاد حضارات عظيمة. وبالتأكيد فإن الفلكلور السقطري قد تراكم خلال مختلف العهود، إذ يوجد فيه ما هو أكثر قِدَمًا، ثم ذلك الذي جاء به المهريون فيما بعد، ثم ما جاء به الوافدون إلى الجزيرة في المراحل الأخيرة.

---

(١) مثل تلك الاعتقادات الخاطئة كانت منتشرة بسبب الجهل ليس فقط في سقطرى وإنما في كثير من مناطق اليمن (المترجم)

طلبت من مرافقنا عمير أن يغني لنا بعض الأغاني الطقوسية، وكنت أعرف عن وجود أناشيد يتضرّع فيها السقطريون إلى الله تعالى لينزل المطر، كما توجد أغانٍ للأعراس، وأخرى لدفن الموتى وغير ذلك من أغاني المناسبات. وافق عمير على الغناء بسرور مزهوًا بنفسه، وتصنع هيئة الرجل الضليع بالطقوس السقطرية القديمة، لكنه قال: نحن لا نحب أن نغني للأجانب، لأن لغتنا وأغانينا هي كل ما نملك، ولا نريد أن يعرف الغرباء لغتنا، وها أنت ترى الآن، أننا نستطيع العيش بهدوء وأن نتحدث فيما بيننا عن كل شيء دون أن يعرف غيرنا ماذا نقول.

بلى، حتى الآن لا يوجد أوروبي واحد، بل ولا عربي واحد تمكن من دراسة اللغة السقطرية، فأحرفها غير الواضحة وغير الاعتيادية غريبة بالكامل، وتظل أيضًا سرعة الحديث السقطري غير مفهومة للآخرين.

يخجل المتعلمون السقطريون بعض الشيء من لغتهم، بينما يعتزون بإجادتهم للعربية، ويجادلون بحماس أنه مع تطور الجزيرة، وعلى الأخص تطور النظام التعليمي في الجزيرة فإن كل السكان سينتقلون إلى اللغة العربية. إنه مصير مؤسف ينتظر لغة مدهشة قديمة. وقد حاولت جاهدًا في كل مكان إقناع الأصدقاء، بأهمية تدريس وتعليم اللغة السقطرية في المستقبل في مدارس الجزيرة، وإيجاد كتابة سقطرية وعدم السماح لهذه اللغة بالاندثار.

استمرت أغنية عمير طويلًا بألحانها الرتيبة، وربما المملة بالنسبة للأوروبي، ويصعب التمييز في كلماتها بين بعض الأصوات، وكأنما تتحد جميعها في تيار صوتي معقد. وينطق البدويون معظم الأصوات في الغناء بفم شبه مغلق، تا-رام- را- تا-رام-را-را-را-، إيقاع الأغنية واضح وبسيط، وها هو عمير

ينتهي من الغناء، رجوته أن يترجم الكلمات إلى اللغة العربية، وبدا أن هذا الأمر صعب بالنسبة له، فعمير ليس قويا باللغة العربية، ولذا اكتفى بشرح الموضوع في عدة جمل.

وفي وقت لاحق تمكنت في عدن من الجلوس طويلا مع آلة التسجيل واثنين من السقطريين الشباب، العاملين في عدن، وقد سمعا أغنية عمير، المسجلة في الشريط، بتوتر وبجهد بالغ، وطلبا إعادة الاستماع للأغنية من العبارة الأولى، وحاولا فهم كل كلمة وإدراك الفكرة، ومع كل ذلك بقي الكثير غير واضح.

هذه لغة قديمة جدًا، قال أحمد، ومثل هذه الكلمات التي نسمعها في الأغنية، لا يتداولها أحد تقريبًا الآن، وأنا لا أعرف ماذا تعني، لكنني أعرف تمامًا أن أجدادنا تحدثوا هكذا.

والحقيقة أن الأغنية مهمة، وها أنا أحاول أن أقدم ترجمة تقريبية لها:

من سيوبخ سوية معي هؤلاء الناس؟
عندما يموت أحد ما، يبكون عليه
يصرخون «أواه»، «لقد مات» ويذبحون أغنامهم
لكن لماذا لا يذبحون هذه النعجة من أجل المطر
الذي وهبه الله؟
من الأفضل أن يكون المطر هو ما تطلبونه باسم كل الرسل
وليس تكريم الميت.
لماذا لا تتشفعون إلى الله كي يهبكم المطر؟
إذا تشفعتم سيكون لديكم اللبن والسمن والحليب

كل من يتضرعون باسم جميع الرسل، طيبون
لكن ليس أنتم يا من تنحرون الأغنام على الأموات
لأي شيء تعملون هذا من أجل الميت؟
إذا لم تضحوا بالأغنام من أجل المطر
سيبتلعكم البحر، وتنشق الجبال من تحتكم
عندما ينزل المطر، أنتم تقولون: لا مطر
ينزل الله عليكم رحمته، وأنتم لا تقدرون ذلك
إذا ما وهبكم الله الرحمة
يجب عليكم أن تشكروه على ذلك
إنني أنصحكم، أولادي
إذا ذهبت النعجة من هنا إلى مكان بعيد
لا توقفوها في الطريق لذبحها
فلتذهب إلى مكانها
ربما أن قلبها مشدود إلى ذلك المكان
وستجد الأعشاب لتأكلها
سترعى سوية مع البقرة
ستجد قطعة متشربة بالماء
فتمتص منها قليلًا من الماء وتركض.
إذا ما أوقفتموها في الطريق لتذبحوها

إن الله سيعاقبكم على هذا
ستموتون جميعًا، وتبقى النساء فقط بدون رجال
كل إنسان أعطي شيئًا ما من الخيرات
لذلك من يملك نخلة واحدة فإنها تعطي الثمار
في موسم الحصاد
وحين يحل المساء يقطفها هو
ويأتي أيضًا تسعة أشخاص ويقطفون الثمار من الأغصان
يشبعون فيأخذون معهم ويحملون إلى بيوتهم.
إذا كانت عند أحد هنا نعجة واحدة فقط
يعدها ناقصة
جلبها هو فيملأ قربة من جلد جدي صغير
يرتوي هو منها ويرتوي جميع أهل بيته
وكل من يريد
حتى المريض يرتوي من لبن النعجة.

في هذه الأغنية كثير من الأشياء غير الواضحة، ولكننا نجد فيها غير قليل مما يوجب الاهتمام، وهكذا، ففي مستهل الأغنية يدافع أحدهم، كما يبدو، عن وصايا الأسلاف، ويدعو إلى عدم نحر الأغنام في ولائم تأبين الموتى، والاكتفاء بذبح الأغنام فقط عند صلاة الاستسقاء لطلب المطر، (أو بمثابة شكر لله على المطر). ترى هل يمكن تفسير هذا بأنه اعتراض ضد العادات



الوثنية القديمة، من قبل حملة العادات الإسلامية والإيمان بالله، وبشكل خاص ضد نحر الأغنام في ولائم الدفن؟. أم أن مضمون الأغنية، دعاء قديم إلى الله ليهبهم المطر؟.

الجدير بالذكر، أن هذه الأغنية تخاطب ضمائر السقطريين الجبليين، الذين انتشرت بينهم سرقة الأغنام والماعز في مواسم الجفاف. وهي تقنع بعدم حلابة أو ذبح النعاج التي تأتي من بعيد، لأن الله يعاقب على ذلك، وإذا أردت أن «تستعير» فمن الأفضل حلابة أغنام الجار، لأنه سيحلب في المرة الأخرى أغنامك.. هكذا هي أخلاق الجبليين.

وهناك أساس للاعتقاد في أن السقطريين عبدوا في العهود القديمة الأحجار، ونذكر أن الاحجار الكريمة، النيزكية والبركانية الأصل، كانت أحد أشكال الاعتقادات العربية القديمة، وهذا ما رواه المؤلفون الإغريق والرومان.

ومنذ زمن طويل، قبل ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، اشتهر في الجزيرة العربية حجر النيزك الضخم «الحجر الاسود» في الكعبة المشرفة، التي يتجه إليها السكان المحليون، وإيمانهم قوي للغاية في ربانية أصل الكعبة، حتى إن نبي الإسلام محمدًا ﷺ الذي حرم كل الأوثان العربية القديمة، لم يشك في قداسة «الحجر الاسود» وغدا إجلالها جزءًا أساسيًا في العبادات الإسلامية، وتتجه سنويًا إلى الأماكن المقدسة في مكة في شهر الحج أعداد هائلة من المسلمين لأداء فريضة الحج والطواف حول الكعبة.

الرائد الإنجليزي سبنسركوك، الذي أمضى في سقطرى اثني عشر شهرًا في الخمسينيات، أشار إلى أن السقطريين حتى إلى ذلك الوقت قد حافظوا على عادات عبادة الأحجار.

ويحتمل أن الدائرة الحجرية الغامضة، التي تعد حسب تقديرات دوو بقايا لنظام السقي، وكذلك أيضًا الأحجار والمعابد التي رآها الرحالة في غرب الجزيرة، ذوات صلة بعبادة الأحجار، وذلك لأنه لا وجود لأية آثار أخرى تدل على التطور الزراعي في الجزيرة، ومعروف أن الزراعة تتطلب بشكل خاص إنشاء منظومات الري. والتسليم بوجود الزراعة اعتمد أساسًا على أن السبئيين الذين انتقلوا إلى الجزيرة، في زمن ما، كانوا مزارعين، وكذلك على حقيقة أن الظروف الطبيعية للجزيرة صالحة للتطور الزراعي.

إن لدى سكان الجزيرة إيمانًا راسخًا جدًا في نفوذ القوى الخارقة، ولذلك تُسمى الجزيرة حتى الآن بـ «جزيرة الأرواح» أو «جزيرة الأساطير»، وبالطبع، يمكن هنا وباستمرار سماع الأساطير والروايات، عن الوجود الخارق للجن والأرواح وهي تسمى بالسقطرية ديدهين (في المفرد، ديدهي) ويُعزى إلى تأثير هذه الكائنات، الكثير مما حدث للناس، عدا ذلك فإن السقطريين يعتقدون أن بعض الناس لهم قدرة التأثير العجيب ويستطيعون التفاهم مع الأرواح وإخضاعها حسب إرادتهم.

لقد رووا لي أنه في زمن الإنجليز (رابطت في الجزيرة على مدى عدة سنوات قاعدة القوات الجوية البريطانية) هجمت «روح» على أحد الإنجليز في أثناء نومه في الجبال.

- ديدهي بترت له كل أطرافه، هكذا دون حتى أن يراها أحد- يقول لي شعرهر، رعوي مسن من حَجْهَر، وأرسل الإنجليز لإنقاذ المسكين جرادة كبيرة (أي طائرة مروحية).

- أليس هذا الديدهي، أيوبي بي (ياوالد) من قريتك؟ قلت أنا ضاحكا.

لكن وجه الشيخ بقي مبهما، وقال لي بعتاب:

- من يقدر أن يعمل ذلك غير ديدهي؟ إن رجالنا لم يتجرؤوا بالهجوم على الإنجليز.

- ولماذا؟ سألته أنا.

- إن أي شخص يسيء معاملة الإنجليز يقتله السلطان، أجاب شعرهر.

- وهل يمكن للسلطان أن يجد المذنب؟ إن من يستطيع الوصول إليكم قِلَّة. قلت متعجبا.

- ماذا دهاك، إن السلطان يحب المشي، وقد تسلق الجبل مع كل حاشيته ولا يمكن الهروب منه- أجاب الشيخ العجوز.

وحتى إلى اليوم، فإن السقطريين يعتقدون أن الشيطان يتجول في الليلة الهادئة في الجبل، وهم يخشون من الجبال سيئة السمعة في جنوب شرقي الجزيرة. وتنتشر في الجزيرة حكايات عن أناس مُسخوا إلى حمير وإلى «قط الزباد» وصقور الجيف، وكذلك عن الموت والأمراض التي يستحضرها السحرة، وهم يخافون «الساحرة» بصورة جعلتهم ذات مرة يقترحون على ضابط بريطاني أربع بقرات حلوب وستة تيوس إذا قتل الساحرة.

وصف العقيد الإنجليزي إ.سنيل، المحاكمة الأخيرة للساحرات في سقطرى، الذي اتفق له أن يكون شاهدًا لها عام ١٩٥٥م:

«كما يكون دائمًا في تلك الأماكن، حيث الساحرات يُعدْن جزءًا متعارفًا عليه من السكان، ففي سقطرى يمكن أن يتهمون الإنسان بالسحر ببساطة، بدافع الحنق أو الانتقام والثأر أو الكراهية. وعلى هذا الأساس، ففي كل عام يقدم

للمحاكمة ١٥-٢٠ شخصًا، وهم يعتقدون هنا أن الرجل يمكنه أن يمارس السحر مثله مثل النساء، لكنني لم أسمع أبدًا أنه قد وقف أمام المحكمة ولو رجل واحد. تعرض الاتهامات أمام زعماء القبائل وكبار القوم أو أمام السلطان نفسه، وتتم كل المحاكمات في حديبو عاصمة الجزيرة.

بعد أن يضعوا المتهمات تحت الحراسة في حديبو، يدرس السلطان أو من ينوب عنه في الحكم في أثناء غيابه بكل اهتمام أسباب الاتهام وصحة الإثباتات والبراهين. وبقدر الإمكانية أخلاق المتهم والمدعي، ومن ثم إذا رأى المسألة جادة بما فيه الكفاية، يكلف شخصًا يتم اختياره بشكل خاص للقيام بالمحاكمة أو الاختبار.

يتم اختيار هذا الشخص المختبر (لا أدري كيف نسميه أفضل؟) من بين نصف دزينة آخرين ممن يعدون مشهورين. وبقدر ما استطعت التحقق منه فليس من الضروري أن يكون هؤلاء مشهورين «بالوراثة» رغم أنهم يمكن أن يكونوا كذلك، ومع ذلك فإنهم ينبغي أن يملكوا موهبة «طرد الأرواح الشريرة من المجانين»، وعادة فإن هؤلاء الناس يُعدون في ذات الوقت أطباء محليين (حكماء)، ويحصل الشخص الذي يقوم بالاختبار على أربعين روبية مقابل عمله. ويتم في البداية استدعاؤه بين يدي السلطان، حيث يقسم بالقرآن على ما يلي:

- أنه مسلم مؤمن.
- أنه بنفسه ليس ساحرًا.
- أن لا يقوم في أثناء الاختبار بأي عمل يعرِّض مهمته للشك.
- أن يقوم بالاختبار بكل عدالة ودقة.



وهذا القسم، تحديدًا، يتناقض مع التعاليم الإسلامية، ويعطي أيضًا دليلًا آخر على تذبذب عقيدة سكان الجزيرة.

بعد ذلك يطلبون المتهمة ويسألونها هل تعترف بتهمتها في السحر أم لا. وعلى العموم فإنها تستطع الاعتراف في أي وقت من الاختبار، وعلى هذا الأساس تكون «أدانت ذاتها» وأُعفيت من الاختبار. وإذا لم تعترف بذنبها، فإنهم يكلفون الشخص المحدد ليهيئها للاختبار الذي سيكون في صبيحة اليوم التالي، بحضور كل سكان المدينة وكل من له الرغبة في التواجد. وفي أثناء الليل يقوم صاحب الاختبار ومن معه من المكلفين بتقييد المتهمة بالأيدي والأرجل بحبال قوية، ثم يثبتون كيسين في كل منهما خمسة أرطال من الحجارة، يضعون الأول على صدرها والآخر على الخصر، ويلفون في الأخير حول خصرها نهاية الحبل الطويل وتنتهي بهذا عملية التهيئة.

وفي الفجر يضعون المتهمة في زورق، ويحملونها إلى مكان محدد عند الشاطئ، مسافة ميل إلى الشرق من حديبو، وهناك ينقلونها إلى القارب. وفي البحر يقودها صاحب الاختبار ومساعدوه إلى أن تصل إلى المكان المحدد، حيث عمق الماء حوالي خمسة عشر قدمًا، ولأن عمق البحر في هذا الموقع منحدر جدًا، فإنهم يبتعدون إلى مسافة نصف ميل عن الشاطئ.

يبدأ الاختبار بإخراج المتهمة من القارب ورميها في البحر، ثم يرخون الحبل الطويل الملتف حول خصرها، فإذا اتجهت مباشرة إلى القاع، فإنهم يجرونها نحوهم إلى القارب ويفحصون فيما اذا التصقت بها حبات الرمل من الأسفل، فإذا وجدوا أي أثر للرمل، يكررون تغطيسها مرتين، وإذا اتجهت المتهمة إلى القاع فهذا يعني أنها اجتازت الاختبار، ويعلنون براءتها، أما إذا

كانت ساحرة فإنها تعوم على سطح البحر بوضعيه عمودية بحيث يبقى الرأس والكتفان جافة، ثم تتحرك ببطء نحو الشاطئ إلى أن تصل إلى مكان ضحل قليل العمق.

وإذا تم الإقرار بتهمتها فإنها تقف أمام السلطان مرة أخرى للاستماع إلى العقوبة. وفي الأزمنة القديمة نفذ دائمًا حكم الإعدام على الساحرة، أما في الوقت الحاضر فينتظر المذنبة النفي من الجزيرة، فيرسلونها بسرعة، تحت الحراسة، إلى مدينة قلنسية (ميناء غرب الجزيرة تمر فيه الزوارق غالبًا) ويركبونها في أول زورق عابر بغض النظر عن وجهته، ويدفع أقرباء المحكوم عليها مقابل إبعادها، أو من أموالها، ويسمح لها بأخذ الأموال المنقولة، أما أبناء هذه المرأة فيبقون في الجزيرة.

في نوفمبر ١٩٥٥م جرت محاكمة ثلاث نساء، واحدة منهن عجوز في السبعينيات من العمر، اعترفت قبل دقيقة من بدء الامتحان على الشاطئ أنها «ساحرة» وحسب العرف فقد «حكمت على نفسها» وأُعفيت من «التغطيس» في البحر، أما المرأتان الأخريان فسبحتا في الشاطئ وعدَّتا مذنبتين.

وبحدود معرفتي فلم تتخذ أية إجراءات ضد المُدَّعين الذين تدحض الاختبارات دعواهم، وسبب ذلك ينحصر في أنهم حقيقة لا يعدون مدعين وإنما فقط «مُخبرين عن أعمال مشبوهة» أما فيما يتعلق بالاختبار الفعلي، فطالما أن كل التحضيرات له تتم سريا، فيصعب الحكم فيما إذا أخفى صاحب الاختبار عوامة ما تحت ثياب رثة. ومن المحتمل جدًا أن صاحب الاختبار يستخدم عوامة ما إذا كان هو نفسه مقتنع بذنب المتهمة.



وفي كل الأحوال فإن هذه الممارسات ما زالت توجد في الجزيرة، وأنا موقن أن النساء المنحوسات الحظ، اللاتي تم الإقرار بأنهن مذنبات، لا يأسفن لأنفسهن، لأنهن مقتنعات أنهن ساحرات بذاتهن، ولذلك فإن العقوبة عادلة في نظرهن.

وأحيانًا تبرز ظروف معقدة حين يُرجع موظف قنصلي حي الضمير المرأة السقطرية المُبعدة مما يسبب الأسى والحسرة لدى السلطان الذي لا يملك أية سلطات دولية لكي يعرقل هذا.

وتتداول الكثير من الاساطير عن قدرات سكان الجزيرة على مخالطة القوى المشبوهة، وهاكم واحدة منها:

تزوجت امرأة من قشن من رجل سقطري، لكنه هجرها فعاشت وحيدة سبعة أعوام، فأضحت كئيبة حزينة، وذات مرة شكت مصيرها الحزين لصديقاتها اللاتي كانت تستحم معهن في جدول للمياه، في يوم من أول أيام شهر محرم، ثم رقصن بعد ذلك على ضوء القمر، واقترحت عليها إحدى صديقاتها الذهاب عشية اليوم التالي لوحدها إلى شاطئ البحر، وقالت لها إنها ستجد هناك وحشًا بحريًا ضخمًا، ينبغي عليها أن تركب عليه وسيحملها إلى زوجها. خافت المرأة ولم تقرر الذهاب. لكن صديقتها كررت نصيحتها مرة أخرى، قائلة لها إنها في هذه المرة لن تقابل وحشًا وإنما طائرًا كبيرًا، عليها أن تجلس على جناحيه وسيطير بها إلى الوجهة التي تتمناها هي. وهذا ما حصل، وقد قضت المرأة تلك الليلة مع زوجها، وقبل أن تتأهب للعودة إلى البيت، قررت أن تحتفظ بإثباتات ملموسة عن رحلتها تلك، فأخذت معها خلسة جنبية وخاتم الزوج. وبعد انقضاء مدَّة قليلة أدركت أنها حامل، وكما

توقعت، ارتاب جيرانها من هذا الأمر، وعند ذلك فقط عرضت عليهم جنبية وخاتم الزوج.

ولقد وجد في الجزيرة «كاشف الكذب» لاختبار استقامة الإنسان وصدقه، ومن الواضح أنه عربي الأصل، وقد استخدم جمرة عادية. ففي لسان المتهم بالكذب يضعون الجمرة الساخنة، وإذا صدر عنه عويل أو صراخ يعدونه مذنبًا ويحكمون عليه بالموت. أما إذا لم تؤلمه الجمرة فإنهم يقرون براءته ويطلقون سراحه. ومثل هذه العادات كانت منتشرة أيضًا في أوساط البدو في الصحاري المصرية.

غالبًا ما تسترعى اهتمام الباحثين الكثير من المسائل التي تميز سقطرى عن بقية الدول الإسلامية، فترقُّب الساحرات غير مشهور في الوطن العربي، لأن الإسلام لا يعترف بالقدرات السحرية للإنسان العادي، ويستخدم هنا برهانًا آخر، فانعزال الجزيرة ومقاومة التأثيرات الخارجية ولَّدت نزعات غير عادية. والتاريخ الديني لسقطرى، مزيج من الوثنية والمسيحية والإسلام. وعلى الارجح فلا توجد ولا واحدة من هذه العقائد هنا بشكل نقي، بل تتداخل مع العناصر الأخرى دائمًا. ففي الوقت الذي يسود فيه بين كل سكان الجزيرة الإسلام، المذهب الشافعي، فإننا نجد هنا حتى الآن عدة خصوصيات.

الحياة الدينية في سقطرى

إن الحياة الدينية وعقائد السقطريين، التي كانت عرضة لكثير من التأثيرات، لم تُدرس بعد إلّا قليلًا. وهي تعد لغزًا غامضًا، يفتح شهية منتهزي الفرص، الجريئين جدًا، فالباحثون العرب يعدون السقطريين مسلمين منذ زمن طويل، فيما يبحث آخرون في ثقافة السقطريين عن آثار للديانة المسيحية وتقاليدها،



وهناك طرف ثالث يرى أن الاعتقادات القديمة بقيت في نفوس السقطريين، وأنهم لم يأخذوا من العقائد الإسلامية إلّا القشور الخارجية فقط، وحتى هذه ليست بالكامل، فالمساجد لا توجد في الجزيرة إلّا في البلدات الكبيرة مثل حديبو وقلنسية، وينعدم وجودها في الأرياف، ولاحظت مثل من سبقوني أيضًا، إهمال السقطريين لبعض الفروض الإسلامية وبشكل خاص الصلاة المنتظمة.

توجد وجهة نظر، فحواها أن المسيحية نجحت في إيجاد جذور عميقة لها في الجزيرة، وأن الإسلام لم يتمكن من إزاحتها بالكامل. وتصف إحدى الأساطير المنتشرة تقليديًا، طلبات السقطريين الكثيرة إلى القديس فوما، الذي وجد نفسه في الجزيرة في الطريق إلى الهند، لدخول المسيحية، ويروون أن سفينته تعرضت لحادث تحطم، وبُنيت أول كنيسة مسيحية هنا من حطامها. وعندما وصل في عام ٥٢٤م قبل الميلاد إلى سقطرى الراهب الإغريقي كوسما انديكوبليفست، قادمًا من أثيوبيا، وجد أن المسيحية قد ترسخت في الجزيرة، وأن المسيحيين السقطريين قد خضعوا للكاثوليكوس النسطوري في بابل. وفي القرن الثالث عشر الميلادي، ذكر ماركوبولو أن سكان الجزيرة مسيحيون، ولهم مطرانهم (رئيس الأساقفة) الذي لا يخضع لروما، ولكنه يعترف بالسلطة العليا لرئيس أساقفة بغداد.

لقد عثر مختلف الرحالة على مدى مئات السنين على بقايا الديانة المسيحية في الجزيرة. أحدهم هو مؤلف برتغالي ذكر في القرن السادس عشر «أن السقطريين يسمون أنفسهم مسيحيين، ولكنهم لا يعرفون المواعظ ولا الأدعية ولا التعميد، وهكذا ليس لديهم من المسيحية سوى الاسم فقط».

وحتى ذلك الوقت فإن السقطريين احتفظوا في محاريبهم في الكنيسة بالصليب وحملوه على صدورهم، وكان في كل قرية كاهنها الخاص الذي يردد الصلوات ويحرق البخور، وقد ردد السقطريون غالبًا كلمة « اليلويا» وهزوا خشخيشة خشبية بدلًا عن رنين الأجراس.

وبعد قرن من الزمان عثر القس الكرملي فينشيتتسو على آثار المسيحية في الجزيرة. وعلى الرغم أن السكان- كما يبدو- قد اعتنقوا المسيحية، فإنهم تقريبًا لا يعرفون عنها شيئًا، واتبعوا في الممارسة مراسيم هي مزيج عجيب، فقد ألَّهوا القمر ومنعوا استعمال المشروبات المسكرة ولحم الخنزير، واتبعوا الختان، ومع ذلك فقد احترموا الصليب وحملوه في مقدمة كل نشاطاتهم. وأشار الأب فينشيتتسو أنهم كانوا يجتمعون في كنائسهم الصغيرة المظلمة والوسخة ثلاث مرات في النهار وثلاث مرات في الليل. واندهش القس الكرملي لإحراقهم البخور في الكنائس وقيامهم بدهن المحراب الكنسي كل يوم بالسمن البقري ووضعهم الصليب والشموع على المحراب. وكما يشير، كان السحر منتشرًا بين السقطريين، ومع تقدمهم في السن كانوا غالبًا ينهون حياتهم منتحرين. وكانت لدى كل أسرة مغارة خاصة لدفن موتاها، وكان السقطريون متشددين في أحادية الزواج، أي الزواج من واحدة فقط.

خلال عامي ١٥٤١-١٥٤٢م، عند ما زار سقطرى، فرانسيسك كسافي، في أثناء رحلته إلى الهند، لم يكن هناك رئيس أساقفة ولا قساوسة، رغم أن شعائر الخدمة الدينية استمرت أربع مرات يوميًا بانتظام، وبقي فقط القليل جدًا من آثار المسيحية، ووجد فرانسيسك أن السقطريين لا يمارسون طقوس التعميد، رغم أنهم احتفظوا بإشارة الصليب.

ظلت بقايا آثار المسيحية في سقطرى حتى القرن التاسع عشر، فبالقرب من إيريوش عثر على أطلال بنايات مستديرة، ربما كانت كنائس.

ويعد بعض الباحثين أن المسيحية في الماضي لم تتجذر في سقطرى ولم تتمكن أن تتأصل في الوسط السقطري ولا معنى الآن، مطلقا، للبحث عن شيء ما من رواسب وبقايا الطقوس والمعتقدات المسيحية في الجزيرة. ويرى بوتينج أن ديانة سكان الجزيرة يمكن عدَّها وثنية- إسلامية. ويبدو لي أن تصور ذلك أمر صعب، لأن الإسلام قد احتوى على كثير من معتقدات سكان الجزيرة العربية ما قبل الإسلام. ولاحظ بوتينج أن السقطريين ينطقون الصلاة بلغة عربية ركيكة مكسرة، ولا يفهمون ما تعنية. ولكن أليس كذلك تصلي الكثير من الشعوب الإسلامية التي تنطق الآيات القرآنية ولا تفهم اللغة التي كُتب بها القرآن؟!. ومن جانب آخر فإن بوتينج على حق: إذ أنه لم يتسن بعد، وقد لا يتسنى العثور على شيء ما من بقايا المسيحية في المجتمع السقطري المعاصر. أما فيما يتعلق بالعادات والطقوس القديمة التي تعايشت في الجزيرة فإنها تحتاج إلى دراسة خاصة.

الأرجح أن البحث عن آثار المسيحية ينبغي أن يكون في المعالم الأثرية للعصور القديمة، وليس في طقوس وعبادات الناس.

في خمسينيات هذا القرن، ذكر س. كوك أنه عثر في الجزء الغربي للجزيرة على «معبد على غرار الدائرة الحجرية المفروكة بأرجل وأرداف كثير من الناس». هذه اللقية تماثل كنيسة مسيحية صغيرة بدائية، رغم أن هذا المعبد يمكن أن يكون قد وجد قبل المسيحية، ومهما كان ذلك، فمن الواضح أن هذا المعبد قد بني قبل ظهور الإسلام.

جاء المهريون بالإسلام إلى سقطرى، وقد سيطروا على الجزيرة في عدة موجات، ووجد البرتغاليون في العام ١٥٠٧م المسلمين في الجزيرة، وبعد خروجهم غلب الإسلام هناك نهائيًا.

وفي عام ١٨٠٠م نزل الجزيرة أتباع المذهب الوهابي[١]، وهدموا كل الأضرحة والكنائس والمقابر على الشاطئ القريب من حديبو، وفرضوا رقابة مشددة على السكان لأداء الفرائض والواجبات الدينية الملزمة على المسلمين، ولكن تفاصيل هذا النزول المفاجئ غير معروفة للأسف، رغم أنه من المحتمل أن تكون المؤلفات الوهابية قد حفظت أية إثباتات وشواهد عن هذه الحملة وتأثيرها على سكان الجزيرة.

ومع ذلك فإن السقطريين لا يعطون الآن للواجبات الدينية إلّا القليل من الاهتمام، وقد حدثني سكان قرية دعرهو أنه يعيش في منطقة رأس مومي «مسلمون سيئون» لا يصلون ولا يصومون أبدًا، رغم أن هذا يمثل الحد الأدنى من متطلبات الديانة الإسلامية من المسلمين المؤمنين.

لم تؤكد بعد الأبحاث والتنقيبات الأثرية أن السقطريين المسيحيين قد عاشوا في الزمن القديم ليس فقط في جبال حَجْهَر وإنما في مناطق الهضبة الجبلية بالقرب من رأس مومي، ومن المحتمل أن تعرف البعثات اللاحقة شيئًا ما جديدًا عن هذه المنطقة.

خشي السقطريون بشدة «عين السوء»، وربما يوضح هذا فزعهم أمام آلة التصوير، ومع ذلك فحتى إذا وافق الرجال على التقاط صور لهم، فإن

(١) الوهابيون: أتباع المذهب الديني- السياسي الذي ظهر في الإسلام في نهاية القرن الثامن عشر، ويدعي الوهابيون تنقية الإسلام من البدع التي ظهرت خلال تطور الإسلام.

التقاط صورة للمرأة أمر مستحيل تقريبًا. فبعثة إكسفورد، التي مكثت طويلًا في الجزيرة والمجهزة جيدًا، لم تستطع أن تصور ولا امرأة سقطرية واحدة. وذات مرة ترقَّب أحد أعضاء البعثة «الغنيمة» في زاوية الشارع، على أمل أن يلتقط لها صورة عند خروجها من الركن، من دون ان تدرك تلك المرأة أنه يصورها. ومع ذلك فإن السقطريات أظهرن رد فعل سريع حين رأين آلة التصوير، وركضن مسرعات قبل أن يتمكن المصور، سيء الحظ، من الضغط على ترباس آلة التصوير.

قبل بضع سنين، جاء إلى الجزيرة الصحفيون الكويتيون، الذين رافقهم عمير أيضًا إلى ناحيته في الجبال، إلى دعرهو، وقد أراد مبعوث مجلة «العربي» سليم زبال أن يجعل من صورة الحسناء الأولى في القرية، جارة عمير «تمة» التي فتنته (صورة الغلاف)، وتمكن عمير من اقناع الفتاة كي تتصور، وبدون مساعدة عمير لم يكن باستطاعة الملايين من قراء واحدة من أكثر المجلات المصورة شهرة في الوطن العربي أن يروا الصورة الملونة للحسناء السقطرية. مرَّت بضعة أشهر، وعرفت «تمة» أن صورتها قد ظهرت على الورق ويشاهدها الكثير من الناس، وسرعان ما اهتزت الفتاة، حتى أن بشرة وجهها وصدرها اصطبغت بلطخات حمراء، ثم بدت فيما بعد تورمات وأصبحت الفتاة في حالة مشوهة يرثى لها، وغدا من المستحيل معرفة «نجمة الغلاف». وحاليًا يستحيل اقناع فتاة ما من فتيات دعرهو للوقوف أمام الكاميرا والتقاط صورة لها، لأنهن متيقنات أنه سيحل بهن مصير «تمة».

أما صورة «أفنية» الفتاة الرشيقة البيضاء، من حديبو، فقد تمكنا من التقاطها فقط، بعد أن أقسمنا لها اليمين (في غياب الزوج) أن صورتها ستذهب إلى بلاد

الشمال البعيدة، وأن أحدًا من المواطنين لن يراها أبدًا.

في الطريق من موري إلى قلنسية وفي جوف سيارة نقل تمكنت من التقاط صورة لامرأة أخرى، ومع تعجبي الشديد، وافقت بسرور على أن تتصور، ربما كانت أرملة أو عابرة سبيل، تشابه ملامح وجهها الهنديات، وتميزت كثيرًا بجرأتها عمن حواليها من النساء، اللواتي ما إن ظهرت في يدي آلة التصوير حتى حجبن رؤوسهن بالمناديل وسط ولولة وعويل.

ويتخذ الرجل موقفًا خاصًا تجاه مظهر زوجته، وقد حكوا لي كيف أن أحد الضيوف الأوربيين في الجزيرة، أراد ان يجامل شخصًا معروفًا في حديبو، فقال له إن زوجته جميلة بصورة غير عادية. وسرعان ما تغير وجه الصاحب البشوش أمام عينيه.. لماذا زوجته جميلة؟... ماذا يعني ذلك؟ سأل الرجل ضيفه، ثم أوحى إليه أنه قد حان وقت الانصراف. ومثل هذه «المجاملة» وغيرها من ملاحظات الرجل الغريب الخاصة بمظهر الزوجة تعد هنا إهانة.

واحدة من الوساوس في سقطرى، والمعروفة للباحثين، أن سكان الجزيرة غالبًا يغطون أفواههم بشريط من القماش الموثق إلى الأذنين، وأحيانًا يجمعون اللحية ويحولونها إلى ما يشبه الكمامة في الفم، ومبعث كل هذه الخشية والخوف هو الذبابة الأسطورية القاتلة (دي عسر) التي كأنما يموت الإنسان بمجرد ابتلاعها. ويؤكد السقطريون أن (دي عسر) ذبابة ولودة، تضع يرقات وليس بيضًا، ولكن لم يتيسر لأحد من الرحالة ليس فقط رؤية هذه الحشرات الضارة، وإنما حتى معرفة حادثة حقيقية لموت إنسان من جراء التهامه للذبابة. وفي حَجْهَر قابلت أيضًا أناسًا بأفواه مغلقة مربوطة، أثاروا لديّ نظرات حب الاستطلاع، وكأنهم يتأهبون لاقتحام عدو غير مرئي. ولم يغط

المسنون منهم أفواههم، وتفسيرهم لذلك، أن التجربة الطويلة علمتهم أن يسمعوا طنين الذبابة فيغلقون الفم في اللحظة نفسها مباشرة.

وقد ذكر بوتينج أيضًا عن ربطات الفم، كما حاول الطبيب المبعوث، في أثناء مدَّة العمل في الجزيرة، أكثر من مرة الحصول على أثر ما لهذه الذبابة المشؤومة، ولكن بلا جدوى. وذات مرة وقع حادث مهم، إذ جاء تاجر اللؤلؤ راكضًا إلى الطبيب وكأنما ابتلع ذبابة ضارة، ارتجف أهل الرجل من الفزع، وتأهبوا ليكونوا شهود موت شنيع. ترجى التاجر الطبيب لينقذه، ومع ذلك فإن محاولات الطبيب لم تسفر عن وجود أية آثار للذبابة في الكائن الحي المنكوب. إن تاجر اللؤلؤ لم يبق حيًا فقط وإنما أظهر صحة جيدة يحسد عليها. وهكذا فإن أعضاء البعثة عدوا كل الحكايات عن هذه الذبابة مجرد شعوذة، ويرى طبيب البعثة أن السقطريين يعللون بذلك الالتهاب الرئوي.

ويبدو لي أن أسلوب الدفاع من الذبابة هو وقاية خاصة وطقس سحري حكيم، مرده انتشار شيء ما في الجزيرة من الأمراض المعدية، على سبيل المثال فيروس الزكام أو مجموعة متكاملة من الأمراض، وهو ما يتأكد في كون السقطريين يعزون إلى هذه الذبابة سيئة الصيت مختلف الأمراض. فمثلًا يرون أن الذبابة يمكن أن تضع الترياق في العيون أو الأنف أو في جوف فم الإنسان، وعندها تصاب هذه الأعضاء بمختلف الأمراض، وفي هذه الحالة فإن المرضى حسب نصائح الطبيب المحلي (الحكيم) ينظفون الفم والحلق بصبغة منقوع التبغ أو يستخدمون وسائل أخرى للمضمضة بغية القضاء على «اليرقات». ومن البديهي أن كل هذه الأمراض لا صلة لها كلية بالذبابة. وتوجد لدى جميع الشعوب طقوس سحرية قديمة وتعاويذ مختلفة



لمواجهة الأمراض. وأحيانًا تحمل هذه الطقوس في ذاتها نواة عقلانية، على سبيل المثال، الإنذار من الاختلاط مع المصابين بأمراض معدية، وقلما لم تعد بفوائد ملموسة.

وتضاهي وقايةَ الفم من الذباب لدى السقطريين طقوسٌ أخرى لدى ما يسمون بعرب المستنقعات، الذين يعيشون جنوب العراق في الأراضي المليئة بالمستنقعات. ذكر الباحث المعروف ويلفريد تيزيجر، المتخصص بهذه الجماعة الإثنية، الذي مكث في المستنقعات عدة سنوات، أنهم عندما يختنون الطفل يسدون فتحتي أنفه بخرقة، ويعلقون بصلة حول عنقه ولا يأكلون السمك والزبادي والبطيخ، ويمتنعون عن شرب السوائل، ويقللون من جرعات الماء في اليوم طالما لم يشفَ الجرح بعد، وهم يعتقدون أن رائحة الخبز الساخن يمكن أن تضاعف التهاب الجرح. وهنا الشروط الأولية نفسها: فعند غياب مواد التعقيم وعند المخالفة العامة لقواعد الصحة فإن أية جراح من السهل أن تتأثر، ويعالجون هذه الأمراض بالشعوذة ويستخدم المجتمع البدائي الطرق السحرية للوقاية منها.

هناك طابع تقليدي لأحد أنواع العلاج في سقطرى (الحجامة)، إذ يعمل الطبيب الشعبي عدة حزوز في رأس الشخص المريض، ويمص الدم من خلال قرن خروف، وتصاحب العملية حركات إيمائية معينة وتعويذات (تستعمل قرون الخروف كأوعية أيضًا، وفي «التطبيب» المحلي، إذ يتم وضعها على جسم المريض، بعد أن تكون قد بقيت مدة معينة فوق النار).

ذكر تقرير بعثة إكسفورد أيضًا طقسًا مزعومًا آخر للعلاج في سقطرى، هو الدهان بالطين الأبيض، لكن حين كنت في الجزيرة اتضح لي أن هذه الطريقة

ليست سحرية على الإطلاق (وهي بالمناسبة لا تنتشر على نطاق واسع في الجزيرة). ببساطة، توجد بالقرب من حديبو رواسب الطين الأبيض، وتمتلك خواص العلاج الناجع، إذ تستخدم في معالجة الأمراض الجلدية، وقد اشتبه هنا على علماء إكسفورد العلاج العادي مع طقوس سكان الجزيرة.

ومن غير شك أن مراسيم الختان تعود إلى العادات العربية العامة القديمة جدًا، ودراسة هذه الطقوس لدى السكان الأصليين في سقطرى مسألة في غاية الأهمية للبحث العلمي، وبشكل خاص لتحديد نمط الثقافة اليمنية القديمة وتأثيرها في تكوين الحضارة العربية الإسلامية. ولم يلق هذا التأثير حقه من البحث والتقييم في علم الاستشراق حتى الآن، لأن الحضارة القديمة في اليمن لم تدرس إلّا قليلًا بعد، ويعتقد بعض الباحثين أن عادات الختان كانت منتشرة في اليمن منذ الأزمنة القديمة، وباحثون آخرون يبدون تحفظات على ذلك.

يتم ختان الطفل لدى سكان المناطق الساحلية في سقطرى في سن الخامسة إلى السادسة، كما هو متبع في العادات الإسلامية، ومع ذلك حافظ الختان أيضًا على خصائص الطقوس الوثنية لاختبار الرجولة، التي تتم عادةً مع بلوغ النضج الجنسي، من سن الثانية عشر إلى الرابعة عشر. ويعد يوم الختان لدى الجبليين عيدًا كبيرًا، لأن الفتى الغض يغدو فيه رجلًا، وكنت قد سمعت منذ مدَّة عن خصوصية هذه العادة العربية القديمة على الطريقة السقطرية، واعطتني الرحلة إلى الجزيرة إمكانية مشاهدة ذلك بأم العين. الجدير بالذكر أن الختان لم يعد يتم إجراؤه لدى العرب المسلمين بطريقة احتفالية، وفقد منذ زمن طويل صلته بالطقوس القديمة التي يعود إليها، فيما ما زالت باقية طقوس مماثلة لدى القبائل الإفريقية. أما في كثير من الدول الإسلامية فإن

الختان يقوم به الجراحون منذ زمن طويل، ومثل هذه العملية الطقوسية كما في سقطرى، لن تجدها أكثر في أي مكان من الوطن العربي.

كنت قد سمعت عن الصعوبات التي تصاحب زيارة الأجانب والتواجد في مراسيم مماثلة في إفريقيا، وتوقعت أن أجد معارضة كبيرة لرغبتي في مشاهدة هذه المراسيم، وعندما طلبت من أحد الشيوخ المسنين في دعرهو أن يدعوني في أقرب يوم تستعد فيه القرية لـــ «اختبار الرجولة» لعدد من الفتيان، اعترض العجوز بتردد، بحجة أن هذا غير ممتع وأن الطقوس لم تعد كما كانت، ثم إنه لا يعرف بنفسه متى سيحين موعد مثل هذه الطقوس. ومع كل ذلك وبعد أيام قلائل دعيت للحضور.

ها هو يوم الاحتفال قد حان. اجتمعت كل القرية في المرج، جلس الرجال في المقدمة في نصف دائرة، ثم النساء من بعد كذلك في نصف الدائرة، ومن الخلف الأطفال الصغار، وفي الوسط، قرب الصخرة المخصصة التي سوف يجلس عليها الفتى، يقف الطبيب المحلي، وهو إحدى الشخصيات المُعتدّ بها في القبيلة، ثم يأتون بالشاب، نجم الحفلة، إلى ناحية الصخرة، ويجلس الفتى عليها مشبوك الرجلين وفي تلك اللحظة يبدؤون بقرع الطبول، وعلى إيقاعاتها يغني الرجال والنساء تشجيعا للفتى: «اليوم سوف تختن، وتصبح رجلًا.. اليوم سنذبح الكثير من الأغنام ونحتفل بميلادك». وتتسارع دقات الطبول، ويقترب الشيخ من الفتى بسكينة مشحوذة بحدة، هي ببساطة قطعة حديد مسطحة رُكِّب لها مقبض من قرن الماعز، وبمثل هذه السكينة يذبحون الماشية ويقطعون الشجيرات، ومن خلال حركة أو حركتين تكون عملية الختان قد انتهت، ويجلس الشاب بلا حراك، رغم الألم، لأن الشرط



الرئيس هنا لاختبار الرجولة هو الثبات ورباطة الجأش، وعدم الارتعاش أو الصراخ، حتى لا يُذاع صيته بأنه جبان أو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال، وتساعده الأجواء الاحتفالية والأغاني والتغاريد التقليدية ودقات الطبول المرتفعة على الاحتمال، ولا يوجد ما يوقف الدم، وحين تنتهي المراسيم يأخذون الشاب إلى الكوخ، وتنحر أسرته خروفًا وتدعو كل الجيران إلى الضيافة، وبعد عدة أيام يكون الرجل حديث العهد يؤدي أعماله، يحلب ويرعى العنزات ويمخض السمن.



الفصل الرابع

المهريون في سقطرى

ظلت أوروبا في المرحلة المبكرة من القرون الوسطى منهمكة في شؤونها الخاصة، وبعد القرن الرابع الميلادي وردت قليل من المعلومات عن سقطرى. وكان ما رواه الجغرافيون والمؤرخون العرب عن الجزيرة في الغالب إعادة لما ذكره الإغريق والرومان، ومع ذلك فإن بعض المعلومات عن تلك المرحلة، على الأقل، تعد هامة.

وتعود إلى القرن العاشر الميلادي أخبار تفيد أنه عاش في الجزيرة عشرة آلاف من الرجال المسلَحين، وفي القرن الثالث عشر الميلادي كتب الرحالة الإيطالي الكبير ماركوبولو، أن جميع السقطريين مسيحيون، وهم يقتانون باللبن والسمن والرُّز ويمارسون صيد الأسماك وقنص الحيتان(؟) والتجارة، وقد جاءت إلى الجزيرة كثير من السفن التجارية، عدا ذلك استخدمت سقطرى قاعدة لقراصنة البحار الذين كانوا يبيعون غنائمهم على سكان الجزيرة. فيما بعد وحتى القرن السادس عشر الميلادي لم يورد أي ذكر محدد أو دقيق عن سقطرى. ويمكن القول وبثقة إنه خلال هذا الزمن الطويل لم يعد أحفاد اليونانيين والعرب والهنود المستوطنون «غرباء أجانب» بل تحولوا إلى سقطريين وتحدثوا بلغتهم وتخلقوا بعاداتهم وكونوا معًا وحدة سكانية واحدة.



وفي نهاية القرن الخامس عشر مطلع القرن السادس عشر يمكن أن نجد معلومات مهمة عن سقطرى، في مؤلفات الملاح العربي الشهير من عمان أحمد بن ماجد (رافق فيما بعد بنفسه سفن فاسكودي جاما من الميناء الصومالي ماليندي إلى ساحل الهند)، يشير ابن ماجد أنه عاش في سقطرى أهماج النصارى أي السكان المسيحيون، الأقرب حسب رأي ابن ماجد إلى البرابرة، وقد عدَّ هؤلاء السقطريين «البرابرة» أحفاد الإغريق الذين ذكرهم الجغرافيون العرب في القرون الوسطى.

في القرن الخامس عشر وصل المهريون من اليابسة بحرًا إلى سقطرى، وهم قبيلة في المناطق العربية الساحلية للمهرة التي تقع في الجانب الآخر المقابل لسقطرى. وكما يبدو فإنهم قريبون إلى السقطريين بلغتهم وعاداتهم (على الأرجح أن السقطريين كانوا كذلك مستوطنين من اليمن، لكنهم اندمجوا مع المستوطنين المتأخرين من البلدان الأخرى)، وكان المهريون في ذلك الوقت مسلمين متحمسين.

كتب ابن ماجد: وقد ملكوها في عصرنا محمد بن علي بن عمر بن عفرار وبني عبدالنبي السليماني الحميري، وكلاهما من مشايخ المهرة، وبنوا فيها حصنا وحكموا بعض أهلها وسخروهم، يأخذون من الرجل من سمن ومن المرأة شملة[1] من نسيج بلدهم، وكان قد ملكها في زمان العباسية رجل من العجم، فاحتال عليه أهلها وأسكروه هو وأصحابه وقتلوهم، وقد قتلوا أحمد بن محمد بن عفرار الذي تولى عليهم بعد موت أبيه، فجاء أعمامه وقبيلته وسخروهم، وولوا عليهم ابن عبدالنبي، فمن ذلك قالوا إنها شؤم على من

(١) شملة: تسمية سقطرية للحاف، وتعد من أهم المواد التي تنتجها الجزيرة في الوقت الحاضر.



ملكها، وهم قوم وطيين الجانب إذا دخل عليهم الغريب يعرضون عليه الماء والزاد، ويعرضون عليه ثيابهم، وحاكمة عليهم امرأة، وإما تزويجهم بيد قسيس النصارى الذي يسكنون الكنائس ويقيمون بها بمشورة تلك المرأة، فانقضى ملكها في عصرنا وضعف.

ومن ملاحظات هذا الملاح الشهير يتضح أن سقطرى كانت في العام ١٤٨٩م قد وقعت في قبضة المهريين، ولعلهم لم يتمكنوا من فرض إشرافهم المباشر على كامل الجزيرة، (عن هذا يكتب ابن ماجد وتؤكده كثير من الأحداث اللاحقة فيما بعد في أثناء الاحتلال البرتغالي) ولذا اكتفوا فقط بفرض ضريبة عينية على السكان، وقد وجدت بين المهريين والسكان المحليين عداوة معينة يؤكدها مقتل الشيخ المهري على أيدي السكان الأصليين. وليس غريبًا وصف ابن ماجد للسيادة الخاصة للأم، فقد كان ذلك طبيعيًا في درجة معينة من تطور المجتمع، وكما يذكرون فما زال الزواج حتى الآن لدى بعض القبائل الجبلية في الجزيرة يتم حسب رغبة وخيار المرأة.

انطلقت للسيطرة على سقطرى قبيلة «بني عفرار» المهرية التي عاشت في منطقة المدينة الحالية «قشن» على شاطئ الجزيرة العربية. كتب البرتغالي باروش أنه حتى الاحتلال البرتغالي، أي حتى عام ١٥٠٧م كانت سقطرى قد خضعت ستة وعشرين عامًا لحكم سلطان قشن. وعلى هذا الأساس فإن السيطرة المهرية قد تمت تقريبًا في العام ١٤٨١م. وكان الحصن العسكري المهري، سوق، مركز سقطرى آنذاك، يقع إلى الشرق من العاصمة الحالية للجزيرة حديبو، وكان قد بني قبل عام ١٤٨١م وأعيد بناؤه بعد الاحتلال البرتغالي. وكان الحصن يقع على بعد ٣٥٠- ٤٠٠ مترًا من المرفأ في الرأس

البدء إلّا الأساس المبنى من الاحجار والمثبت بمحاليل كلسية، والعجيب أنها كانت تمتلك مقاطع مختلفة (أي أن الأعمدة كانت مختلفة الشكل). ومع ذلك فإن الأعمدة تتكون من حيث الشكل من مربعات وأخرى من ثمان زوايا وثالثة بنجمة وعمود دائري، وقد احتفظت صورة هذه البناية في الرسومات التي وضعها جوان دي كاسترو عام ١٥٤١م، والرسوم دقيقة جدًا، رغم أنها تتبع القواعد العصرية في المنظر والأبعاد، ويمكن حتى التعرف على قمم جبال حَجْهَر، ولا تتبين فقط سوى القلعة عند جبال خواري وهي الجبال التي ترتفع فوق سوق.

كتب ت. بينت في عام ١٨٩٧م عن بقايا قلعة أخرى في وادي فيراجي إلى الجنوب من حَجْهَر، وبالقرب من القلعة خرائب واضحة لمدينة قديمة، ويتكون حائط القلعة من صخور ضخمة تبلغ ٣٠ مترًا بالطول، ومتر ونصف المتر بالارتفاع، وبلغ سمكها إلى ثلاثة أمتار، ومن المحتمل أن البناة قد عرفوا كيفية رفع ونقل الأحجار الثقيلة، ومن المتوقع أن فيراجي كانت في القديم أشبه بمركز هام، وهناك كانت مزارع الأشجار التي يستخرج منها الصمغ أو أنها كانت تزرع هناك نباتات عطرة الرائحة.

في عام ١٩٥٦م وصل إلى تلك الأطلال، التي وصفها بينت، كل من ج. ويكلي، ب. شيني. وكان الحصن يقع في المكان نفسه، حيث يضيق الوادي، شُيِّدت البنايات من قطع أحجار غير ممهدة والقلعة في المخطط تشابه المثلث. ترتفع مجموعة الجدران ٦ ,٣-٥ , ٤ أمتار من الصخور الجرانيتية الضخمة ذات اللون الأحمر، توصِّل بين برجين، وكان يقع تحت أحد الحيطان حوض صناعي، استخدم كما يبدو كخندق. وحين تأتي المياه من الوادي كان يمتلئ



منها. أما البرج الثالث فكأنما كان يقع على ارتفاع مثلث وبجانبه وجدت بقايا غرفة صغيرة وفناء داخلي وجزء من الحائط.

يرى أحد الرحالة أن هذه الأطلال بقايا قلعة برتغالية، ولكن شيني وصل إلى استنتاج يؤكد أن لا وجود لشيء من الخصوصية البرتغالية في هذه الخرائب. ومع ذلك يمكن القول وبثقة، ـ وفقًا لهندسة البناء وموقعه ـ: إنه كانت هنا قلعة حصينة، ربما استخدمها المهريون في زمن سيادتهم على الجزيرة كنقطة إسناد خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. وتشرف القلعة بالكامل على الطرق الرئيسة من شمال الجزيرة إلى جنوبها، وارتفعت في قلب أراضي السكان الأصليين، ولهذا كانت قاعدة نموذجية لتغلغل المهريين إلى العمق أو للقيام بالحملات التأديبية المفاجئة. والحقيقة أننا لا نعرف مدى فعالية مقاومة السكان ضد المهريين الذين ظهروا في الجزيرة، ويمكن التوقع أن السيطرة قد تمت بسلام تقريبًا، والأهم من ذلك أن السقطريين لم يكونوا متعصبين للمسيحية حتى يمكن أن يقاوموا بفعالية وحزم انتشار الإسلام.

ومع ذلك فسرعان ما قُدِّر للشيخ المهري أن يعيش أوقات عصيبة، وها هي «المذكرات التاريخية لشانبل» تذكر الأحداث الرئيسة لعام ١٥٠٧م:

«في هذا العام استولى الكفار الفرنج على سقطرى وقتلوا هناك ابن الطوعري الزويدي مع خمسين من المسلمين وشيدوا هناك القلعة».

وكما هو معروف لنا أن هذه الأحداث قد جرت في إبريل ١٥٠٧م، وبذلك انقطع حكم شيوخ آل عفرار بضع سنوات بعد ستة وعشرين عامًا من حكمهم.



الفصل الخامس

الغزاة البرتغاليون

كشف مطلع القرن السادس عشر عن مرحلة في تاريخ الجزيرة، عُرف عنها ربما أكثر مما عرف عن غيرها من المراحل. كان هذا زمن التوسع البرتغالي في بلدان حوض المحيط الهندي، وفي تلك الأعوام بالضبط أنشأ البرتغاليون إمبراطوريتهم الاستعمارية الواسعة، لكن قصيرة الأجل، في الهند وإفريقيا والخليج العربي.

إن البرتغال، التي كانت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، إلى جانب أسبانيا، القوة البحرية العظمى في العالم، قد بحثت ولزمن طويل عن طريق يوصل أوروبا بالهند، وطيلة القرن الخامس عشر شقت السفن البرتغالية رحاب المحيطات، ووصلت إلى أقصى الجنوب على طول الشاطئ الغربي لإفريقيا، وفي آخر الأمر، في فبراير ١٤٨٨م، كان بارتولوميودياش أول برتغالي دار حول الطرف الجنوبي لأفريقيا وولج المحيط الهندي.

وفي العام ١٤٩٧م جهز البرتغاليون حملة فاسكو دي جاما، وفي يوليو ١٤٩٧م أبحرت من لشبونه سفنه الثلاث «سان- جبريل» و«سان-رفانيل» و«بيريو» وسفينة نقل صغيرة، وقد عبرت على طول الساحل الغربي لأفريقيا ووصلت إلى رأس الرجاء الصالح، وواصلت الإبحار على طول الساحل



الشرقي، وفي العام ١٤٩٨م وصلت إلى الميناء الصومالي ماليندي، وعلى هذا النحو كان البرتغاليون أوائل الأوروبيين الذين اكتشفوا الشواطئ الجنوبية الشرقية لأفريقيا، وزاروا عددًا من المراكز الساحلية في تلك الشواطئ (حتى ماليندي).

لكن شرف المأثرة العظمى في تاريخ الملاحة العالمية - عبور المحيط الهندي- لا يعود، بمقدار ما لفاسكودي جاما، بقدر ما للملاح العربي الكبير أحمد بن ماجد، فقد أخذ ابن ماجد موقعه على متن سفينة القيادة البرتغالية في ماليندي، وبإرشاداته الملاحية قاد السفن البرتغالية إلى الميناء الهندي كالكتا. وفي نهاية اغسطس ١٤٩٨م، أقام فاسكو دي جاما صلات مع حاكم كالكتا واستقبل على ظهر السفينة شُحنة توابل، ثم رحل في طريق العودة.

لقد اكتسب اكتشاف الطريق البحرية المنتظمة إلى شواطئ مالابار الهندية أهمية تاريخية كبرى للعالم أجمع، وجعلت البرتغاليين يستعمرون الكثير من دول آسيا. في عام ١٥٠٢م اتجه فاسكو دي جاما من جديد إلى الهند على رأس أسطول بحري مكون من عشرين سفينة، ووضع حجر الأساس لعدد من الحصون على شاطئ مالابار، ونهب الكثير من المدن، وأخضع بقسوة وفظاظة مقاومة السكان المحليين، ثم عاد إلى لشبونة بالغنائم الثمينة الوفيرة. ولكن لم يكتشف البرتغاليون سقطرى لأنفسهم إلّا في عام ١٥٠٣م فقط، على يد القبطان فرنانديش بيريو.

في العام ١٥٠٥م غادر ميناء لشبونة أسطول برتغالي آخر، تحت قيادة فرانسيسكودي الميدي، وكان على متنه ألف وخمسمائة جنديًا. وقاد الميدي أيضًا حملة استعمارية أكثر اتساعًا في شرق إفريقيا. فقد تسلَّم أمرًا لإنشاء ست

قواعد إسناد عسكرية- تجارية في الطريق بين شرق إفريقيا والهند، وحقق الميدي السيادة الكاملة للبرتغاليين في المناطق الساحلية شرق إفريقيا.

استهل البرتغاليون علاقتهم مع الدول الواقعة في هذه المنطقة من خلال التجارة وصولاً إلى احتلالها فيما بعد. وفي ٥ إبريل ١٥٠٧م، وحسب أمر ملك البرتغال مانويل أبحر الأدميرال البرتغالي الشهير تريستان دي كونيا من لشبونة، على رأس أسطول من أربع عشرة سفينة، متجهًا إلى الهند. وفي اليوم التالي رفع مساعده الفونسودي البوكيرك العلم ولحق به أيضًا مع ست سفن، ثم اجتازوا طريق رأس الرجأ الصالح، ولكن ما إن وصلوا إلى ماليندي حتى أدركوا أن الوقت قد أصبح متأخرًا هذا الموسم لاجتياز المحيط والإبحار إلى الهند. وكلفت قيادة الأسطول البرتغالي جواسيسها لجمع المعلومات عن الأماكن المناسبة للتوقف في موسم العواصف، وبعد مشاورات قصيرة قرروا الاتجاه إلى سقطرى، والانتظار هناك عدة أشهر حتى تتحسن حالة الطقس، عدا ذلك أن البرتغاليين عدُّوا سكان الجزيرة مسيحيين، وقرروا إنشاء حصن عسكري هناك يمكنه أن يحمي الطريق البحري إلى الهند. وها هو ما حدث في يناير ١٥٠٧م، بعد انقضاء عشرة أشهر على إبحار الحملة من البرتغال[1]:

«تم الإبحار دون المرور في أية بلاد، ورست السفن في سوكو (سوق) الذي كان الميناء الرئيس في الجزيرة، وحيث يقطن السكان الأصليون، وفي يوم بهيج والرايات تخفق على كل السفن، حيوا الجزيرة بطلقات المدفعية

(١) استخدمت هنا ولاحقًا مواد كتاب الفونسو البوكيرك: Commentaries Of The Great Alfnso Dalboquerque، ed. By W. de Gray Birch. London، 1875.



طالما أنَّ سكانها مسيحيون. لكن ما إن شاهد تيريستان دي كونيا القلعة التي بناها العرب هناك، محاطة بسور وأبراج محصنة، مع برج مرتفع في الوسط، وهو ما يختلف كثيرًا مع المعلومات التي تم الحصول عليها من الملك؛ حتى أرسل في طلب الفونسو دي بوكيرك وجميع قباطنة الأسطول وأخبرهم أن سيده الملك قد أمره بإنشاء قلعة في هذه الجزيرة، ويكون قائدها الفونسو بورونيو لحماية المسيحيين الذين استوطنوا الجزيرة منذ عهد القديس فوما، وقد أمرهم الملك بنشر اسم الرب في جميع الأراضي التي سيطروا عليها».

كانت القلعة العربية في الجزيرة مفاجأة غير سارة للبرتغاليين، وباءت بالفشل كل محاولات التفاهم مع الشيخ قائد القلعة، ولم يرفض العرب مغادرة القلعة فحسب، بل ورفضوا بشكل عام التفاهم مع البرتغاليين الذين لا معرفة لهم من أين جاءوا. عند ذلك قرر الأدميرال تريتسان دي كونيا مهاجمة القلعة، اعتمادًا على الحامية قليلة العدد (وعلى الرب كذلك) وقد كان الإنزال صعبًا، والبحر عاصفًا، ولا وجود لأية حماية من الشاطئ، ولذا قام الفونسو دي البوكيركي باستطلاع الشاطئ بنفسه على زورق وقد «وجد خورًا بجانب دغل نخيل حيث البحر أكثر هدوءًا، رغم بُعده نسبيًا، فقرروا النزول هناك «.

«أمر الفونسو دي البوكيرك الأكبر ابن أخيه الفونسو دينوروني أن يجعل زورقه على أهبة الاستعداد مع أربعين مقاتلًا من حملة المسكيت، وأن يأخذ معه مدفعية وبارودًا لها وقذائف، واثنين من رماة المدفعية، وكذا آلة رافعة واثنين سلالم من الحبال لاقتحام القلعة عند الضرورة، وأعد نفسه للإبحار وراءهم على متن زورق مع انطونيو دي نوروني ودون جوان ليما وأخيه دون جيرونيم دي ليما وغيرهم من الفرسان الصغار».



وما إن أطل الصباح حتى أبحر المهاجمون نحو الجزيرة وكان ترستان دي كونيا في المقدمة، والفونسو دي البوكيرك في المؤخرة، وقد لاحظ دي البوكيرك عند إبحاره على امتداد الشاطئ أن البحر هادئ تقريبًا وأنه يمكن النزول هنالك، ورأى كيف خرج من القلعة شيخ عربي مع مئات من رجاله، متجهين ناحية حاجز مصنوع من الأخشاب المدببة الأطراف كانوا قد نصبوه ليلًا لعرقلة البرتغاليين من النزول في الخور، وعند ذلك أعطى البوكيرك أمرًا لنوروني لبدء الإنزال وعلى وجه السرعة، لكن الشيخ لاحظهم قبل أن يتمكن البحارة من القيام بذلك، فأعاد ثمانين شخصًا من رجاله إلى داخل القلعة وبقي هو ومن معه لاعتراض سبيل العدو.

«عندما التقى الجمعان نشبت معركة استخدمت فيها خطاطيف السفن والحراب، وأصيب عدد من بين الثمانين شخصًا وخاض الفونسو نوروني معركة فردية مع القائد العربي، وكادت ضربات الخطاطيف أن تصرعه، ولما ظهر الفونسو دي البوكيرك مع رجاله الآخرين تخلص من الشيخ».

وما إن رأى المقاتلون العرب مقتل زعيمهم حتى أسرعوا إلى القلعة. كتب مؤرخ برتغالي: «ما إن وصلوا إلى القلعة حتى قتل رجالنا ثمانية منهم ولاذ الباقون هربًا، متجاوزين القلعة واختفوا في الجبال، أما العرب الذين كانوا يتابعون اقتراب رجالنا من برج القلعة فقد أخذوا يقذفون بالحجارة من الأعلى، حتى أعياهم التعب، وقد قذفوا في حلكة الظلام الفونسو دي البوكيرك بحجرة مع الأفريز وسقط في تلك الأثناء على الأرض في حالة مخيفة، لكنه مع ذلك لم يفقد وعيه، فأمر الناس أن يحيطوا بالقلعة مباشرة، وبعث نونوفاج كاستيلوبرانك للحصول على القذائف وعلى آله رافعة وسلالم وفؤوس



وكبوش لكسر بوابة القلعة، وعند ما جاء نونوفاج بالسلم أمر الفونسو دي البوكيرك بإسناده على الحائط، وأخذ رجالنا بالصعود عليه وكان جشبار دياش ديكاسيري دي سال، أول من رفع رايته، وكذا نونوفاج مع راية جون كيمادو، ثم حذا الآخرون حذوهم».

وفي المعركة العنيفة عند أسوار القلعة وأبراجها فقد الكثير من المحتلين حياتهم، لكن نهاية المعركة كانت حتمية، لأن القوة لم تكن متكافئة، وقد لجأ العرب بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة إلى البرج الرئيس، وشق البرتغاليون طريقهم إلى داخل القلعة باستخدام الفؤوس والكبوش، وحاصروا البوابة المؤدية إلى البرج في انتظار وصول تريستان ديكوني، وعند سياج الخوازيق واجهوا مقاومة ضعيفة من قبل العرب الذين قتل منهم الكثير ولجأ الباقون إلى الجبال، ثم انظم إليهم دي البوكيرك ودخل القلعة. ومن بين مائة وخمسين من المقاتلين العرب لم يبق على قيد الحياة سوى خمسة وعشرين كانوا في مأمن في البرج المغلق بإحكام، وحاول البرتغاليون السيطرة على البرج من خلال الاقتحام وصعدوا على السلم المتحرك إلى الأعلى لكنهم سرعان ما أدركوا أنهم بذلك سيكونون هدفًا رائعًا للسهام التي ستنهال عليهم من الأعلى، وكاد العرب أن يصيبوا رأس انطونيو دي نوروني لولا أن دي البوكيرك قد صد الضربة بدرعه في الوقت المناسب، وعند ذلك قرر تريستان دي كونيا أن يبدأ المفاوضات مع من تبقى من العرب لكنهم رفضوا الاستسلام فاستمرت المعركة.

ورغم كل شيء تم احتلال القلعة لكن القتال كان عنيفًا بصورة غير متوقعة.

«في صباح اليوم التالي اتجه تريستان دي كونيا مع رجاله إلى مسجد العرب الذي تم تحويله إلى كنيسة رئيسة وأطلقوا عليها اسم (كنيسة سيدتنا التي منحتنا النصر) وخدم القداس الأب انطونيو دي لوريرو من الأخوية الفرنسيسكاوية».

بعد القداس الديني تحدث تريستان دي كونيا مع المسيحيين من السكان الأصليين، مشيرًا إلى أن الملك الفاضل بعثه مع المقاتلين لحماية السكان من استبداد العرب، وأن عليهم أن لا يخشوا شيئًا بعد اليوم، وطلب من سكان الجزيرة مقابل الحماية التي منحت لهم، المحافظة على الأمن وعلى الصداقة مع الحامية البرتغالية وأن يقدموا لها المؤن الغذائية وأن يتعلموا أسس وطقوس العقيدة المسيحية التي نسوها منذ زمن بعيد. لكن سكان سقطرى المسيحيين كانوا منجذبين أكثر إلى المهريين-المسلمين مما إلى البرتغاليين المسيحيين، وأظهروا عداء واضحًا نحوهم.

قام البرتغاليون بترميم القلعة وأطلقوا عليها حصن القديس ميخائيل. وتم الإبقاء هناك على حامية من مائة شخص تحت قيادة قريب دي البوكيرك، دون الفونسو دي نوروني، وفي الأول من أغسطس ١٥٠٧م أبحر أسطول تريستان دي كونيا إلى الهند.

عندما عاد الفونسو دي البوكيرك إلى سقطرى بعد سبعة أشهر، وجد ابن أخيه قائد الحامية الفونسو دي نوروني مريضًا في حالة خطرة، وقد توفي أربعة من رجاله، فيما كان الباقون في حالة سيئة جدًا يرثى لها. كما تمكن العرب

الذين لاذوا بالجبال من إقناع السكان المحليين أن الفرنج (هكذا يسمون كل الأوروبيين) جاءوا من أجل استعبادهم وتحويلهم إلى عبيد فثار سكان الجزيرة ضد البرتغاليين ونهبوا القلعة وقتلوا عدة أشخاص، وكفوا عن تمويل الحامية بالمواد الغذائية ونتيجة لذلك كابد البرتغاليون صنوف الفاقة والحرمان واضطروا أن يأكلوا لحاء أشجار النخيل والثمار البرية، ونخرت زوارقهم وأصابها العطب واحتاجت سفنهم للصيانة، وقد قام دي البوكيرك بتقسيم كامل المواد الغذائية التي كانت لديه بالتساوي، ودفع للحامية أيضا راتب كل الأشهر.

وفي مايو اجتمعت كل سفن الأسطول البرتغالي للراحة خلال فصل الرياح الموسمية في سقطرى.

«عندئذ شن الفونسو دي البوكيرك الحرب ضد السكان المحليين وألحق بهم هزيمة منكرة وفرض عليهم غرامة تأديبية لقتلهم رجالنا، وطلبوا الأمان، ولم يقبل طلبهم إلّا بعد أن اشترط عليهم أن يدفعوا سنويًا لرجالنا في القلعة تعويضات قدرها ٦٠٠ رأس من الأغنام و٢٠ رأس من الأبقار و٤٠ كيسًا من التمر».

بانتهاء الحملة التأديبية، أبحر الفونسو دي البوكيرك من سقطرى. وفي نوفمبر ١٥٠٩م أصبح نائبًا للملك في الممتلكات البرتغالية في الهند، ولم يعد بعد ذلك إلى سقطرى. بعد ذلك الشتاء الأول بالكاد حملت الرياح الموسمية الأسطول البرتغالي في البحر ولم يعد البرتغاليون يستخدمون مرسى سقطرى للتوقف الشتوي، رغم أن سفنهم قد مرت في الأعوام اللاحقة للتزود بالمياه في الجزيرة.

وبصرف النظر عن الحرارة الاستوائية، فإن البرتغاليين توغلوا في كل مكان بخوذاتهم ودروعهم، فأحرقوا وهدموا من أجل توسيع حدود الإمبراطورية البرتغالية العظيمة، التي سرعان ما قُدّر لها أن تموت. ولقد تعرضت جوا، هرمز، عدن، ملكة، والمدن الإفريقية لهجمات عنيفة من قبل الغزاة البرتغاليين.

كان الفونسو ديلبوكيرك واحدًا من الغزاة الناجحين فقد شارك في احتلال ساحل مالابار الهندي، ولمدَّة طويلة بقيت مستعمرة جُوَا، التي أنشأها البرتغاليون في الهند (أعيد توحيدها مع الهند في عام ١٩٦١م، واعترفت البرتغال رسميًا باستقلالها فقط الآن بعد الإطاحة بالنظام الفاشي)، ولم يسمح ديلبوكيرك بتغلغل الأتراك العثمانيين في الهند، وقصف عدن مرتين بمدافعة، وتم احتلال سقطرى وكذلك هرمز في الخليج العربي تحت قيادته، وعقد مع أثيوبيا اتفاقية تعاون في الكفاح ضد بلدان العالم الإسلامية، ولكن كل هذا لم يساعد الغزاة، فسرعان ما انتهت نجاحاتهم.

لم يعد الآن إلّا القليل الذي يُذكِّر بالبرتغاليين في سقطرى، فمن تلك العهود تبقى المسجد الذي حولوه إلى كنيسة سيدتنا سيدة النصر وأطلال القلعة (وحسب المصادر العربية فإن المهريين هدموا القلعة بعد أن غادرها البرتغاليون، وبنوا قلعة أخرى في مكان آخر)، وكذا أشجار البرتقال التي جاءوا بها من البرتغال (تسمى بالسقطرية «تينجي» وهي من البرتغالية «لارينجا») ومن الممكن بعض الأسماء أيضًا: جالاسونا، يمكن أن تكون، قلنسية، جبال ديلافونتي، الواقعة إلى الشرق من سوق (بالسقطرية - شيوك).



ترى هل بقي في ذاكرة السقطريين شيء ما من تلك العصور الغابرة ؟ كلا، إن السكان المحليين لا يتذكرون شيئًا عن ماضيهم، وتوصَّل جميع الباحثين إلى استنتاج مفاده أن الغزو البرتغالي كان مجرد «حادثة عابرة» في تاريخ الجزيرة، لكنني سمعت من شيوخ القبائل الجبلية حين سألتهم عن الأغاني القديمة أنه في زمن غير بعيد عُرفت في بعض مناطق الجزيرة أغانٍ تتحدث عن الجبليين الذين عاشوا في زمن ما في أقاليم أخرى، حيث كانوا هناك أحرارًا، أغنياء وسعداء، لكنهم أُبعدوا من تلك البلاد السعيدة «لذنوب اقترفوها» فجيء بهم إلى الجزيرة حيث يعيشون منذ أمد طويل، تُرى من أين أتت هذه الموضوعات في الفلكلور السقطري؟! إلّا يحتمل أن البرتغاليين حسب ما كان شائعًا من ممارسات في القرون الوسطى، قد نفوا إلى الجزيرة رعايا الملك من المغضوب عليهم والقراصنة الذين وقعوا في الأسر؟.

لقد حكوا لي أن مثل تلك الأغاني كانت منتشرة في منطقة رأس مومي، وهي واحدة من أكثر مناطق الجزيرة مناعة، وهناك بالذات يوجد السكان الأقرب إلى الأوروبيين، ويحتمل أنهم أحفاد المبعدين البرتغاليين.

ولا يعرف بالضبط أين شيد المهريون قلعتهم في القرن السادس عشر، ويرى د. بينت أنها كانت في منطقة تل حصون في الوادي القريب من حديبو. كما كتب توماس روو عندما زار الجزيرة عام ١٦١٥م أنه رأى هناك قلعة، ولكن لم يسمحوا له بالاقتراب من أسوارها. وحسب كلمات روو فإن هذه الأسوار بدت سميكة جدًا، وكانت القلعة نفسها تقع على ارتفاع يطل على كل الوادي وكانت بالفعل قلعة حصينة. وفي عام ١٩٥٦م حاول ب. شيني أن يصور بقايا الأسوار وقياسها، لكن أعاقته الرياح الشديدة الاندفاع التي هبت



على الرابية، وبكلمات شيني فإن سرعة الرياح بلغت ٩٦كم في الساعة.

استمرت الإمبراطورية البرتغالية مدة قصيرة، وحاولت الدول الأوروبية الأخرى المشاركة في الاحتلال واقتسام الثروات الشرقية، ولكن قُدِّر لسقطرى أن يطويها النسيان من جديد، وفي هذه المدة لمدة ثلاثمائة سنة، فلم يُعرف شيء تقريبًا عن الجزيرة منذ الربع الثاني للقرن السادس عشر وحتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي. ويمكن التوقع أنه خلال هذه المرحلة بالذات، من الانغلاق النسبي، تشكلت نهائيًا المجموعات الرئيسة للسكان الذين نجدهم اليوم هناك.



الفصل السادس

السلاطين والمستعمرون

انهزم المهريون من قبل البرتغاليين، ومع ذلك لم يقرروا وداع سقطرى إلى الأبد. أشار المؤرخ الحضرمي شنبل، أنه في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م مات في قشن «شيخ آل الطوعري الزويدي». ويعتقد ر.سيرجنت أن الحديث يمكن أن يكون على ابن ذلك الشيخ من جماعة آل الطوعري، الذي قتله الغزاة البرتغاليون في عام ١٥٠٧م (يسميه المؤرخون البرتغاليون الذين وصفوا الاستيلاء على القلعة «الخواجة إبراهيم»)، وقد قام أبناء ذلك الشيخ في عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م بغارة على سقطرى وألحقوا بالقلعة البرتغالية ضربات عديدة وفي «تاريخ شنبل» نقرأ أيضًا: «في ذلك العام شن خميس وعامر أبناء سعد بن الزويدي غارة على سقطرى التي كانت آنذاك في قبضة الأفرنج وقد دخلوا البلاد وعقدوا معهم اتفاقية (ربما مع السقطريين- المؤلف) لكن الفرنجيين وقفوا ضد المسلمين فاقتتلوا معهم، وقتل ما يقارب العشرة من الكفار، وتغلب المسلمون عليهم وسيطروا على جزء من ممتلكاتهم..»

ارتباطًا بهذا النبأ يذكر سيرجنت، وفقًا لما قاله المؤلف البرتغالي كستنيدا، إن البرتغاليين تركوا القلعة بحجة أن «سكان البلاد بشكل عام تعاملوا بمودة مع العرب أكثر مما معنا.. وغالبًا ما انتفضوا ضد البرتغاليين عندما اندفع



العرب للقتال». ويحتمل أن جلاء البرتغاليين لم ينحصر في ذلك السبب فقط، وإنما لم يستن لهم بطريقة أو بأخرى إيجاد لغة مشتركة مع السكان المحليين.

وسرعان ما اهتزت سيطرة البرتغال في منطقة الخليج العربي، وخمد مجد الدولة البحرية الأولى التي أزاحت من هذه المنطقة البحارة العرب والفرس والهنود. إن أول ضربة قوية موجهة ضد البرتغاليين هنا وجهها جيش سلطان عمان ناصر بن مرشد بن سلطان (حكم عمان على مدى ٢٤ عامًا بدءًا من عام ١٦٢٤م) وأرغم السلطان ناصر البرتغاليين الذين كانوا في هذه المنطقة على دفع الجزية له (وهي ضريبة يفرضها الحكام المسلمون على غير المسلمين) وطردهم من عدة مراكز وقيد تجارتهم.

وينبغي القول إن المهريين الذين هزمهم البرتغاليون لم يقرروا وداع سقطرى إلى الأبد.

وهكذا ففي العام ١٥١١م اضطر البرتغاليون إلى مغادرة سقطرى. ومنذ ذلك الوقت أصبح المهريون الأسياد الرئيسين في الجزيرة، وقد أعيد بناء القلعة من جديد وهُدّمت كنيسة سيدتنا سيدة النصر، وشكل المهريون سلالة السلاطين التي حكمت الجزيرة حتى الاستقلال في عام ١٩٦٧م، وبدأوا بالتدريج في إزاحة السكان الاصليين إلى الجبال، واندمج السكان السابقون في المناطق الساحلية مع مربيي الماشية الجبليين، وسرعان ما استكملت السيطرة المهرية وعادت إلى الجزيرة إلى تلك الحالة التي نجدها عليها الآن.

انتقلت السطلة في سلطنة المهرة وسقطرى (أو قشن وسقطرى كما أسمى الدولة أيضًا السلاطين المهريون) بالتناوب من أحد فروع القبيلة المهرية «بني زياد» إلى الآخر، وكانت عاصمة السلطنة مدينة قشن في المهرة (حاليًا

محافظة المهرة) ومنذ زمن غير محدد عاش السلطان بصورة مستمرة في جزيرة سقطرى، وناب عنه في قشن أقرباؤه ونادرًا ما غادر السلطان الجزيرة، ربما لزيارة الأماكن المقدسة في مكة، وقد اقتنى العبيد من بلدان شرق إفريقيا للعمل والخدمة العسكرية والجاريات للزواج والشؤون المنزلية.

في عام ١٨٣٤م قام الملازمان في أسطول المستعمرة الإنجليزية الهندية، ويلستد وكراتيندين بإجراء مسح لسقطرى، وفي تقريرهما تحدثا عن الجزيرة بشكل مشجع، ولذلك قررت الحكومة البريطانية إنشاء قاعدة هناك لتزويد السفن المتجهة إلى الهند بالفحم، وأُقترح على السلطان بيع الجزيرة للتاج البريطاني، لكنه رفض بيع الهبة التي وهبها الله للمهريين. وفي المفاوضات مع الإنجليز قال السلطان لرئيس المجموعة: «نحن كلنا ملزمون أن ننفذ واجباتنا: أنت- أمام حكومتك، وأنا- أمام قبيلتي، والله هو الشاهد- وداعًا».

وبعد رفض السلطان العنيد التنازل على الجزيرة للإنجليز مقابل ثمن ملائم، تم احتلال سقطرى من قبل القوات الاستعمارية الإنجليزية، ولكن بعد مدَّة قصيرة أصبحت محطة التزود بالوقود غير ضرورية، خاصة وأن الإنجليز قد حصلوا عام ١٨٣٩م على غنيمة أفضل، بعد أن أصبحت عدن مستعمرة إنجليزية، وفي عام ١٨٧٦م عقد الإنجليز مع السلطان اتفاقية، يلزم بموجبها بضمان حماية بضائع السفن الإنجليزية وركابها في الجزيرة، وأن لا يقدم الجزيرة لأية دولة أجنبية أخرى، وأن لا يسمح للأجانب بإنشاء مستوطنات هناك دون الموافقة على ذلك من الحكومة البريطانية. وبعد عشرة أعوام، في عام ١٨٨٧م أصبحت سقطرى تسمى محمية بريطانيا العظمى، واختارها سلطان قشن وسقطرى للإقامة الدائمة.



المؤلفون الإنجليز، المدافعون عن مصالح الاستعمار البريطاني، يكتبون أن سقطرى «من المشكوك فيه أن تتمكن من المحافظة على استقلالها» وأن قدرها قد كتب عليها مصير الدولة التابعة «تحت الحماية» ذلك لأن السلطان لا يملك جيشه الخاص ولا حلفاء له ولا أموال، وسكان الجزيرة قليلون، وليس باستطاعتهم أن يقفوا لوحدهم تجاه أية دولة أخرى. ومع ذلك فلم يقدم المستعمرون للجزيرة شيئًا، واحتفظوا بها كمركز استراتيجي احتياطي فقط في حالة الحرب أو الحالات الأخرى. وحُدِّدت كل «مساعدات» بريطانيا العظمى للسقطريين «تحت الحماية» بعطاءات نادرة لسلطان الجزيرة في حالة المجاعة والأوبئة، وهي كميات من الأدوية والمواد الغذائية.

في نهاية القرن التاسع عشر اشتهرت الجزيرة كواحدة من أكثر الأماكن خطرًا على البحارة المارين، وكان الإبحار خطرًا بشكل خاص بالقرب من رأس مومي، لأن تيارات الرياح وقوتها كانت كبيرة بصورة غير عادية. وكانوا ينذرون السفن خصوصًا المبحرة من قناة السويس إلى الهند لتبتعد أكثر من الطرف الشرقي للجزيرة، فقد يؤدي اقتران التيارات والرياح إلى أن ترتطم السفن بالشاطئ الصخري، المغطى بصورة مستمرة بالضباب والسحب، وتحت الماء تختفي صخور بحرية مخيفة تمتد تضاريسها من الرأس إلى البحر، وكثير من السفن أصيبت بحوادث تحطم وغرقت في اتجاه تلك الصخور البحرية، وفي نهاية القرن الماضي حصل اثنان من أكبر حوادث تحطم السفن.

في عام ١٨٨٧م، في ليلة حالكة الظلام، اصطدمت الباخرة الألمانية «أودلير» بالصخور البحرية في رأس مومي وكان على متن الباخرة نمر نقلوه من حديقة



الحيوان في برلين، وحين غادر ظهر السفينة من بقي على قيد الحياة، خرج النمر بصعوبة من القفص، وانتظر السكان الأصليون طويلًا على الشاطئ، على أمل أن يشقوا طريقهم إلى الباخرة للاستفادة من الأمتعة المتروكة، لكن النمر ظل يسير على سطح السفينة وكأنه حارسٌ، وأخذ ينحل ويضمر أمام الأعين وظل مع ذلك يواصل الزئير، وفي النهاية بعد أن بقي من النمر الهيكل العظمى وغلاف الجلد فقط صعدوا إلى الباخرة.

وبعد عشرة أعوام، وفي ذلك الموقع أيضًا، حدثت كارثة أكثر رهابة، فالسفينة البريدية ذات الدرجة الأولى «عدن»، وبحمولة ٣٩٢٥ طنًا، وتقل ١٣٨ راكبًا إلى جانب الطاقم وحمولة ثمينة (شاي، قصدير، حرير، والبريد أيضًا)، خرجت من كولمبو في مطلع يونيو في ذروة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية القوية إلى حدٍ ما، ومع ذلك فقد تأخرت السفينة ٢٧يومًا، حتى ظهرت أنباء في الصحافة عن «سفينة غير معروفة» شوهدت في حالة خطر عند الطرف الشرقي لسقطرى، وفي اليوم التالي وفي موعد الاحتفال بيوبيل الملكة فيكتوريا تأكدت صحة الأنباء، فقد أُصيبت «عدن» بحادث تحطم نتج عنه ضحايا بشرية كثيرة، وأصبح اسم الجزيرة الذي طواه النسيان ردحًا طويلًا من الزمن، موضوعًا لاهتمامات بلدان كثيرة، وكدَّرت التراجيديا الاحتفالات بيوبيل الملكة، وبدأت في البرلمان الإنجليزي مناقشات عن أسبابها ولماذا لم يشيد في سقطرى فنارٌ لإرشاد السفن، طالما أنه بالقرب منها يمتد خط الملاحة المنتعش؟ وعبرت الملكة بنفسها عن مواساتها لأسر الضحايا.

ارتطمت «عدن» بالصخور الجلمودية في رأس مومي، ليلة ٩ يونيو ١٨٩٧م وفقدت إمكانية التوجيه والرؤية لأنها كانت طوال يومين مغطاة بالضباب

الكثيف، وفقط تم في يوم ٢٦ يونيو انقاذ القليل ممن تمكنوا من الإمساك بالحطام طوال هذه المدة فبقوا على قيد الحياة، وهم تسعة ركاب وثلاثة ضباط وأربعة بحارة هنود، وفي هذه الحادثة فقد ثلاثة وتسعون شخصًا حياتهم.

في الحرب العالمية الثانية كانت في سقطرى قاعدة جوية حربية انجليزية، وبعد انتهاء الحرب أُجليت القاعدة لعدم الحاجة إليها، وعند مغادرتهم سقطرى، أخذ الإنجليز معهم كل شيء كان في القاعدة، حتى المحرك النقال الوحيد في الجزيرة، وبقيت في الجزيرة حطامات الطائرات فقط وبقايا المعسكرات من الأحجار الخام.

عندما وقعت في يدي صورة آخر سلاطين سقطرى، عيسى، تمعنت طويلا في القامة النحيفة، المحدودبة الظهر للسلطان، كانت الصورة قد التقطت للسلطان عند عودته من زيارة المقدسات الإسلامية بعد أداء فريضة الحج في مكة، كان عليه ثوب أبيض طويل وكوفية بيضاء (شال الرأس) ويمنعها من السقوط عقال (طوق الرأس) أسود اللون، كتلك التي يلبسها أيضًا الملوك السعوديون. وإلى جانب السلطان عبد أصلع الرأس، عاري الجسم إلى الخصر، ضخم البنية، هو عبدالله حارس وسفاح السلطان، وقد حدثني السقطريون أن العقوبات الخطيرة نادرًا ما نُفِّذت في الجزيرة، وأن أقسى عقوبة هي قطع راحة اليد، وهو العقاب الذي فرضه الإسلام ضد السرقة، وعقوبة الإعدام التي يفرض الإسلام تنفيذها عن طريق القطع التدريجي للرأس.

أشار بينت إلى أن عقوبة الإعدام في الجزيرة كانت نادرة جدًا، وأن السلطان حدد عادة أسلوب العقاب بما يتوافق والجريمة، انطلاقا من القانون القديم، العين بالعين والسن بالسن: ومن خنق يخنق ومن قطع الرقبة تقطع رقبته. وقد

جرى في حديبو قبيل وصول بعثة أكسفورد إلى سقطرى خنق بدويٍّ كان قد خنق زوجته بسبب الغيرة.

في زمن الجفاف والمجاعة، كان لدى عبدالله الكثير من الأعمال-لقد مارس سكان الجزيرة، الذين عانوا من الفاقة والجوع، السرقة بغض النظر عن خطورة العقوبة الرهيبة التي تنتظرهم، ويقول السقطريون إن كل سكان حديبو اجتمعوا عند تنفيذ العقوبة. أخذ عبدالله واقتلع زند المحكوم عليه ومن ثم قص الجلد بسكينة عادية، وعلى مهل، ثم الأنسجة والعظم فاصلًا كف اليد اليمنى، وبعد ذلك غمس القطع في زيت سمك مغلي. ومن تتخذ بحقه العقوبة لا يفقد الوعي ولا يصدر عنه أي صوت، بل أنه يبتسم - هكذا يؤكد البدو؛ لأنهم أناس ذوو عزة وكبرياء. وتُربط الأكف المقطوعة على سارية وتعلق في الساحة.

ومثل هذه الطريقة القاسية للعقوبة تستخدم حتى الآن في بعض دول المشرق العربي الأكثر محافظة، وإذا ما كرر الرجل مبتور اليد السرقة مرة أخرى فإنهم يقطعون راحة يده اليسرى، ويقولون إن الذين عُوقبوا بسبب السرقة قد أُبعدوا إلى المكلا (ميناء في حضرموت) أو إلى مسقط، ولكن رواية أخرى تفيد أنهم أعادوهم إلى الجبال، ومع ذلك فلم يتسن لبعثة أكسفورد ولا لي كذلك الالتقاء برجل دون يد في سقطرى، مع أن مثل هؤلاء الناس في ظروف الجزيرة يكون مصيرهم الموت السريع.

وكان ضرب المذنبين بالسياط لدى السقطريين أمرًا عاديًا، فقد كان الضحية يوثق إلى ماسورة قديمة لمدفعية برتغالية، ما زالت باقية حتى الآن في الساحة الرئيسة في حديبو. كما عُوقبت المرأة المتهمة بالدعارة بقسوة، وكانت الدعارة

منتشرة بصورة واسعة إلى درجة ما في الجزيرة، وقد كانوا يعرون المرأة إلى الخصر ويجلدونها بالسوط، ثم يجرونها في شوارع المدينة ويلقونها بعد ذلك في بئر جافة ويتركونها هناك ليلة كاملة، وفي الصباح ينتشلونها من قعر البئر ثم يدهنون شعر الرأس والأهداب بعصارة بيضاء سامة، وتقوض العصارة جذور الشعر فيتساقط، وإذا وقعت العصارة في العين فإن الضحية تصاب بالعمى، وكانوا يطردون المعاقبات إلى المكلا، وهناك يمكن أن تجد إلى الآن امرأة بدون شعر أو حواجب.

بدأت صفحة جديدة في تاريخ الجزيرة، وبداية الطريق التي نهضتها في أكتوبر ١٩٦٣م عندما بدأت في جنوب اليمن من على جبال ردفان الثورة المسلحة ضد المستعمرين الإنجليز وعملائهم، من قبل الجبهة القومية، المنظمة الثورية التي وحدت في صفوفها كثيرًا من الوطنيين في جنوب اليمن، وقد وضعت الجبهة القومية على عاتقها مهمة تحرير مناطق الجنوب اليمني وقيام الدولة المستقلة، وخاض الوطنيون وبنجاح نضالًا شاقًا ضد المستعمرين، الذين استخدموا لقمع الثورة الأسلحة الأكثر عصرية كالدبابات والمدفعية والطائرات. وفي يونيو ١٩٦٧م سيطر مقاتلو الجبهة القومية على كريتر، المنطقة الرئيسة في عدن، لمدة عشرين يومًا ولم يسمحوا للإنجليز بالدخول إلى هناك، وتم تحرير إمارة الضالع أيضًا، وحتى سبتمبر حقق الوطنيون سيطرتهم عمليًا على كل إمارات الجنوب اليمني، باستثناء الدويلات الصغيرة في حضرموت والمهرة، وحتى ٢٩ نوفمبر حُرِّرتْ كافة أراضي جنوب اليمن. وفي ٣٠ نوفمبر وتحت ضغط مقاتلي الجبهة القومية الذين وصلوا من حضرموت والمهرة سقط السلطان الأخير في جنوب اليمن، ودخلت سقطرى



المتحررة ضمن جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية التي أعلنت في ذلك اليوم. ومنذ ذلك الحين يتم الاحتفاء في ٣٠ نوفمبر بوصفه يومًا للاستقلال الوطني، وخلال أعوام التطور التقدمي المستقل في كل جنوب اليمن وفي سقطرى حدثت تغيرات كبيرة.



الفصل السابع

البيوت السقطرية

بنيت جميع منازل السقطريين في المناطق الساحلية وفقًا لقاعدة واحدة، تسور القطعة التي يقع فيها البيت وملحقاته الخدماتية بسياج من الصدف البحرية أو من فروع النخيل، وفي بيوت الميسورين يكون السور حجريًا مع باب خشبي. ما إن تدخل السور حتى ترى منزلًا صغيرًا شيد من تلك الأصداف البحرية أيضًا وطلي بالكلس أو النورة، ويتكون في الغالب من غرفة سكنية واحدة (دارفين) ومخزن للمؤنة تحفظ فيه المواد الغذائية، وفرشت الأرضية بحصير من النخل، وعلى الحصيرة عدة بطانيات صوفية، يستخدمها في وقت النوم كل سكان الجنوب العربي، وهذه الألحفة، تسمى بالعربية شملة، يمكن أن نجدها في أسواق عدن والمكلا وسيئون وغيرها من مدن اليمن، وهي تسمى بالسقطرية (خلهل)، ويصنعونها من شعر الماعز ومغزول الضأن، يحيكونها على آلة بيتية بدائية كقطعة مستطيلة غير عريضة، وكل لحاف مَحبُوك من تلك القطعة بعرض ١٥ سنتيمترًا وبطول متر واحد وثمانين سنتيمترًا، وقياس اللحاف المتوسط ١٢٠×١٨٠ سم. لكنني سمعت، كأنما اشترى أحد الضباط البحارة الإنجليز في حديبو لحافًا طوله خمسة عشر مترًا. ومعظم الألحفة سوداء اللون ورمادية، وقد يزينون جوانبها أحيانًا بقطع من الصوف المصبوغ بالألوان، وتستخدم الشملة بساطًا ولحافًا.

وباستثناء الألحفة والحصائر وكذلك اللوازم البسيطة مثل (مسفي) وهي سلة من سعف النخيل (بالعربية- زنبيل) فلا يوجد شيء آخر في الغرفة.

في جانب من الفناء يقع كذلك مسكن صغير، من غرفة واحدة، يُسمى (محاضرة)، أي المكان المخصص لاستقبال الضيوف، وعلى الجهة المقابلة يقع المطبخ ومكان الغسيل والحمام، وفي ركن البيت هناك بستان صغير إلى جانبه بئر مياه مفتوحة، وفي بعض البقع تنمو نخلة أو نخلتان، وما يحيط بالبيت يسميه السقطريون (قاعر) «منزل».

عدا ذلك الطراز من المساكن، يوجد أيضًا صنف آخر، جلب إلى هنا من أعماق القارة الإفريقية، إنه الكوخ الدائري، المشبوك بالكامل بأغصان وأوراق النخيل، يسمى في سقطرى (استري) وقد رأيت قرية كاملة تتكون بيوتها من (استرى) فقط ويعيش فيها المنحدرون من أفريقيا.

إن النخلة هي المادة الرئيسة ليس فقط لإنتاج اللوازم المنزلية، وإنما للبناء أيضًا، وحتى في البيوت المشيدة من الأصداف فإن النخلة تستخدم في تشييد السقف، ففي البداية ينصبون على الحائط من الأعلى عوارض من سيقان شجرة (متثرر) ويضعون عليها شبكة متماسكة من أغصان النخيل (زفنة دي مجرد) ويوثقون الأغصان بالحبل (حتمي) وهو مصنوع أيضًا من ألياف النخيل، وهكذا بغطاء من جذوع (متثرر) وسعف النخيل يشيدون سقف المنزل.

تواجدت كثيرًا إلى حد ما في منزل المعلم عبدالله، والسبب الذي دفعني إلى ذلك هو الإهمال، إذ أنّني جئت إلى الجزيرة ذات الاقتصاد الطبيعي بدون احتياطات من الأطعمة والمؤن. وبينما كنت أفكر في كيفية حل

«مشكلة المواد الغذائية» فإن المضيافين في سلطات سقطرى، سلموني للمؤنة والزاد عند الطباخ الوحيد في الجزيري الذي يخدم السجن، يحضر الغذاء للمسجونين، وقد أعجبني غذاء السجن. في كل صباح يحضر لي الطباخ الأسود رغيف خبز من الدقيق الغليظ، وفي الغداء وجبة من الرُّز مع السمك المشوي وأحيانًا مع اللحمة. ولكن سرعان ما إن قررت السلطات السقطرية إبداء عناية أكبر تجاهي، وأوضح لي أحد مساعدي المحافظ أن الطباخ ليس سيئًا بالطبع، لكنه نادرًا ما يغسل يديه، ولذلك وجهوني لتناول الطعام عند أحسن طاهٍ في الجزيرة، المعلم عبدالله، الذي جاء إلى الجزيرة قبل اثني عشر عامًا مضت، من حضرموت، ترك عبدالله الأسرة الأولى في المكلا، وتزوج من سقطرية وبقي هنا إلى النهاية. وفي المدرسة المحلية علَّم عبدالله أسس الديانة الإسلامية، وهكذا كنت أزور منزل الشيخ عبدالله ثلاث مرات في اليوم، وأتيح لي فرصة التعرف ولو قليلًا على الحياة الداخلية للسقطريين.

على الرغم من أن أسرة عبدالله، شأنها شأن معظم الأسر السقطرية، بالكاد تسد احتياجاتها، فإنهم مع ذلك اقتاتوا في هذا البيت بصورة جيدة. ولجنا المنزل، وتبادلنا التحية التقليدية، وفي النهاية جلسنا في زاوية الغرفة، متكئين على الوسائد المسندة إلى الجدار، وعندما تفحصت رأيت الحصائر التقليدية لأية منزل والبطانيات، وبجانب النافذة جهاز راديو ترانزيستر. ومن السقف تدلى حبل يسند قطعة كبيرة من القماش لفت مرتين، أنه مهد محلي، فأحمد بن عبدالله قد بلغ الخامسة من العمر، لكنه مع ذلك ينام في مثل هذه الأرجوحة. الباب مفتوح على مصراعيه من الغرفة إلى الفناء الداخلي، حيث

يسير العمل على قدم وساق، جلست المرأة الصغيرة الوسيمة في الركن تطحن البسباس للغداء، وهو فلفل أحمر حار، بدونه لا يمكن تَصَوُّر أية طعام لسكان اليمن، وهم يضعون البسباس بين حجرتين ويطحنونه حتى يتحول إلى عجينة، وعلى شعلة لهب من جذوع الأشجار يغلى الأرز في الدورق، وكل الأواني في البيت فخارية ومصنوعة محليًا.

كتب بينت أن البعثة أبدت اهتمامًا كبيرًا تجاه الصناعة الفخارية التي تبدو قديمة جدًا في الجزيرة، وقد لاحظ أعضاء البعثة أنه لا يوجد شيء في مغارات الجبليين عدا جلود الماعز والقدور الفخارية، ولكن لم يتيسر للبعثة جمع مواد كافية عن تطور الصناعة الفخارية عند سكان الجزيرة. لقد رسمت أشكال الأواني في كثير من منازل السقطريين وسجلت أسماء كل واحد منها، ويوجد في كل بيت تقريبًا في سقطرى ما يلي:

(صفلحة) وهي طنجرة كبيرة، يتم فيها طباخة الأرز واللحم. ويجلب الماء في (جسفو) وهي جرة ليست كبيرة ولها رقبة ضيقة. ولإعداد الشاي والقهوة هناك آنية صغيرة بمقبض وبزبوز تسمى (كير)، ومن الفخار صُنع أيضًا وعاء للاغتسال اسمه (صافيه) ويكون موقعة على الأرض، ويطهون في ذلك الوعاء أحيانًا مرق الغنم. ويوجد في البيت بالضرورة (صرباد) وهو دورق كبير لحفظ الماء، وتستخدم لغلي اللبن طنجرة تشبه صفلحة في الشكل تسمى (فوتي). وفي إحدى المناطق الداخلية في أعماق الجزيرة شاهدت ملعقة خشبية كبيرة تستخدم للأغراض المنزلية، رغم أن كل سكان الجنوب العربي يأكلون بأيديهم فقط.

ومن الطريف أن الأواني الفخارية لا تُصنع في كل مكان، وإنَّما في قرية محددة فقط، وحسب ملاحظاتي فإن سكان قلنسية يجلبون الدوارق الفخارية من حديبو، لأنه لا وجود لهذه الصناعة في مدينة الصيادين، قلنسية، ولقد عاد معي صياد شاب سافر للعمل في حديبو في إنشاء الطريق، وذلك على ظهر سيارة نقل عسكرية إلى قلنسية، وكان مع كل هزة قوية وفي كل مرة يربت على ركبتي ويرجوني البقاء بعيدًا عن قدوره الفخارية الثمينة، التي تنتظرها زوجته في البيت بفارغ صبر، وكان تلبية هذا الرجاء أمرًا صعبًا لاسيما وأن الركاب مزدحمون في جوف السيارة كازدحام السمك المكبوس، وفي الطريق صعد الركاب من جديد وجديد، لأن السفر على السيارة حتى قلنسية أبهة وترف نادر.

وجبليو سقطرى يصنعون القدور أيضًا، لكن محيطهم الفخاري غير مشهور، وهم يصنعون أوانيهم بطريقة يدوية من الكلس ثم يقومون بأحراقها فوق النار.

ها هي الآن نور زوجة عبدالله تطهو على النار طبيخًا لذيذًا في (صفلحة) كبيرة.

- أنا عشت في الجزيرة في عهد السلطان أيضًا - يحدثني عبدالله - وعندما تزوجت هنا أصبحت سقطريًا نهائيًا، الحياة هنا هادئة، لكنها مع ذلك صعبة، وأنا أضطر أن أرسل جزءًا من مرتبي الصغير لأسرتي الأولى في المكلا .

يحدث في أحيان كثيرة أن لا يستورد أي شيء إلى الجزيرة ولمدة طويلة، ومن كل بد فبدون الأرز والدقيق والسكر لا يمكن أن تعيش.

يريني عبدالله ولديه من زوجته نور، وهما أحمد وفتحية، بعد قليل يحضرون الغداء، في البداية فرشوا على الأرض حصيرة دائرية كبيرة (ميرحت) ثم وضعوا عليها الطعام بالرز المهروم (القصقص) وفي الأعلى وضعت قطع من لحم

أشعة المصابيح عناد المستميت في السور غير المرتفع، والمبني من الأحجار المثبتة بالكلس، إنه «السور الحصين» لقرية كَدَح. نخرج نحن من السيارة على دوي: «القهب!» «مساء الخير»، إنهم يستقبلوننا. وعلى ضوء المصباح تصافح المستقبلون -رجالًا ونساءً- مع الوافدين بالأيدي، أما مع عامر فعلى الطريقة السقطرية، إذ تلامسوا بالأنوف عدة مرات، وملامسة الأنوف عادة تكرر ثلاث مرات بالنسبة للأقرباء، وقبل احتكاك الأنوف، يلامسون الأنف بيد بعضهم البعض، بين راحة اليد والمرفق، وكتعبير عن الاحترام الخاص للكبار، ينحني الفتى الصغير حتى يلامس أنفه ركبة الكبير. هكذا يحيون بعضهم بعضًا في بعض قبائل اليمن والخليج العربي.

نطفئ المصابيح فإذا نحن في ظلام حالك. تأخذ بيدي يدٌ صلبة ودافئة، إنهم يتجهون بنا إلى القرية.

أكواخ سكان كدح مثل غالبية بيوت المناطق السهلية والساحلية في سقطرى، بنيت من الأحجار المثبتة بالطين ويغطيها سقف من النخيل، يصطرع الباب الصغير ونلج في فناء صغير حيث أعد كل شيء لمائدة العيد. فرش الفناء بالحصير، وعند الحائط كمية من الوسائد، إن هذا هو مكان الضيوف، وتبدأ التحايا والتراحيب.

القهب بيثى بكن جاعر؟

تقول لنا صاحبة البيت، حليمة، المرأة اللطيفة ذات الأربعين عامًا. وهذا يعني «مساء الخير، هل يوجد بينكم مرضى؟». والسقطريون يسألون هذا السؤال دائمًا بعد تحية الضيوف، طمأنا ربة البيت إننا بصحة جيدة على الإطلاق. نصافح مريم الشابة السقطرية، ذات العينين المعبرتين، على أذني

مريم قرطان فضيان كبيران بشكل دائري، ولفّت شعرها في جديلتين تدلتا على الصدر. تسلك النساء هنا بدون قيود ولا تكلف، وهذا أمر معروف، لأن المرأة في سقطرى تقوم بكل الأنواع الرئيسة للنشاط الاقتصادي. فهي ترعى وتحلب الأغنام والماعز وتجلب الماء من البئر وتعد الطعام وتخض السمن وتطحن الحبوب على الرحى الحجرية وتربي الأطفال وتحيك الشملة.

ويرعى الرجال الماشية أيضًا مع النساء، وهم يصطادون الأسماك، وفي الصيف يجمعون التمور، حيث يصعدون ساق النخلة بمساعدة حزام من سعف النخل يحيط بظهر الرجل الذي يجمع التمر ويوثق بالساق. ويبني الرجال كذلك الأكواخ الكثيرة إلى حدما، لأن مواسم الأمطار تزيل أجزاء من الطين الذي يثبت الأحجار فتتهدم كثير من المنازل، ولقد ألمح إلى الدور الرئيس للنساء السقطريات في اقتصاد الجزيرة أحمد بن ماجد، ملاح فاسكودي جاما عند وصفه لزيارته للجزيرة.

وليس من المصادقة أن تخصص للمرأة مكانة مميزة في الاعتقادات التقليدية والأسطورية لسكان الجزيرة، وهي كثيرًا ما تكون ذات قدرة خارقة وذات صلة بالجن والأرواح المخفية.

كانت المرأة ربة البيت، هناك حيثما عملت: في قبائل الجبليين، وفي أرياف الرعاة في المناطق السهلية في الجزيرة، ولكن وضعها مع كل ذلك كان صعبًا للغاية، طالما وجدت في الحياة الكثير من العادات التي تمتهن المرأة وتذلها، وحاليًا فإن الحكومة والجبهة القومية، التنظيم السياسي الحاكم، يقودان النضال من أجل تحرير المرأة، وتُشكل في المدن والقرى في الجزيرة اللجان



النسائية، وفي حديبو حيث كان وضع المرأة صعبًا بشكل خاص، فإنها تسهم الآن إسهامًا فعالًا في الحياة الاجتماعية.

إن السقطريات، مثل غيرهن من نساء الشرق، ينجبن كثيرًا من الأطفال، وفي المناطق القريبة انتشرت في سقطرى، وبالذات في حديبو، عادة تسليم الأطفال للأسر البدوية لتربيتهم، وبعض الأسر تفعل ذلك حتى الآن. وقرار إعطاء الطفل لأسرة أخرى يتخذه الأب والأم قبل مدّة الحمل، ويتم أخذ الطفل مباشرة بعد الولادة ويتم إطعامه حتى سن السادسة تقريبًا، وفي السابق أعطى البدويون أطفالهم بأنفسهم لأسر أخرى لتربيتهم. وحين تتخذ المرأة مثل هذا القرار تقوم بإشعال النار عند مدخل المغارة، ليتبين للجميع أن الأسرة مستعدة لإعطاء الطفل.

بعد التحايا الطويلة والتمنيات بالصحة، نستقر عند الحائط، متكئين على الوسائد، ومن ثم يجلس الجميع، صاحبة البيت والرجال والنساء في نصف دائرة. النساء جميعهن متزينات ومعطرات بروائح شذية، وبشرتهن مدهونة بزيت أصفر- أخضر يلمع بوضوح في ضوء مصباح الكيروسين (الفانوس) ونقشت راحة أيديهن وحوافي الأقدام بأصباغ الصبر الساطعة، وخصلات الشعر بأشرطة منقطة.

وتختلف هذه الزخارف لارتباطها بالوضع الاجتماعي والأسري، فالمرأة المتزوجة تزين السُّلاميات الأخيرة لأصابع اليدين بالكامل. وفي الأعلى منها تمتد خطوط رسمت بينها صفوف من النقاط، وتغطي باطن القدم بالأصباغ وتزين الأقدام من الأعلى بالنقاط. والنساء السقطريات معجبات بالزينة، ولا توجد واحدة منهن لا تحمل الفضة، كما تلبس الميسورات الحلي الذهبية،



ويلبس الأطفال، والرجال أيضًا في الجبال، الأساور الفضية على اليد فوق الزند بقليل.

أما في المناطق الساحلية فلا يستخدم الرجال الزينة، ومع ذلك فإن النساء قررن تعويض ذلك التواضع، بوفرة الحلي المعلقة عليهن. قبل كل شيء تلفت الأنظار الأقراط، حلقات كبيرة بنتوءات من الأسفل، وأغشية مشكلة، وهي هكذا تسوف الأذن. ومعظم النساء الجالسات معنا حول المائدة قد خرمن في شحمة كل أذن ثقبين، وأدخلن في كل ثقب قرطين اثنين! ولقد رأيت في سقطرى امرأة كانت قد خرمت كل حوافي الأذنين من الشحمة إلى الأطراف العليا. وذات مرة قيض لي أن أشاهد في الجبال «امرأة قياسية» فعلى كل أذن يوجد لديها اثنى عشر قرطًا تلامس الجنب تقريبًا.!

تلبس النساء السقطريات الثياب السوداء، والخضراء المائلة إلى السواد، والصفراء أو الحمراء، ويتم حشوها من الأطراف بخيوط فضية اللون، الثياب فضفاضة، تلتف مشدودة حول الخضر بحزام من الحراشف المعدنية، ينتهي بحلقة تضم عدة مفاتيح عادية صغيرة، كتلك الخاصة «بالأقفال الإنجليزية» وهذه المفاتيح لا قيمة حقيقة لها، لأن الأقفال لا وجود لها هنا والأقرب أنها للزينة فقط وهي جزء لا بد منه من الملابس والأدوات النسائية التي تجلب السعادة. ولدى بعض النساء ترن على الخصر بضع عشرات من المفاتيح، وعلى الأيدي يلبسن أعدادا كثيرة من الأساور، أحيانًا بالعشرات على كل يد وخواتم، وعلى الرقبة عقد غليظ معمول من الفضة المستوردة من حضرموت، وتبدو غالبًا في المناخير أقراط من الذهب، ويلبس الكثيرون، بما

في ذلك الرجال (خاصة الجبليين) حروز وطلاسم حول العنق، تصونهم من «عين السوء» أو من الأمراض.

يتواصل الحديث الذي تعززه النساء بحيوية، الروائح العطرية الشذية تمتزج مع رائحة مرق الماعز المنبعثة من المطبخ، حيث تم الانتهاء من طباخة ماعزين ذُبحا خصيصًا للضيوف، وهي ضربة محسوسة في ميزانية الأسرة. يضحك الرجال بتهكم أكثر وهم يلقون النظرات إلى النساء اللاتي يتحدثن مع الضيوف، ونادرًا ما ينطقون ببعض كلمات فقط، تتحدث النساء عن صعوبة الحياة وعن كثرة الأعمال التي تقوم بها المرأة وكم سيكون رائعًا لو أن أطفالهن سيعيشون بشكل أفضل، وهنا لا يعرفون الزراعة كما هو حال المناطق الأخرى من الجزيرة، وتوجد في بعض المنازل فقط أحواض صغيرة تنمو فيها بعض الخضروات، كوخ حليمة كان خاليًا تقريبًا، على الجدار علقت حصيرة مضفورة بشكل دائري وهي تقوم بدور طاولة الطعام وبعض الأثاث المنزلي، على الأرض ألحِفة وبعض الوسائد، الغريب رؤية ماكينة خياطة «زينجر» في هذه العشة، لولا أنها تتواجد في سقطرى بصورة كثيرة إلى حد ما، لأن السقطريات يخيطن ثيابهن بأنفسهن من الأقمشة التي تستورد من حضرموت.

وبعد وقت قليل جاءوا بالأطباق، مع عصيدة من الرز المهروم، يسمى هنا قصقص وعلى القصقص تدخن قطع اللحم، نبدأ بالأكل، يقدمون للضيوف أفضل قطع اللحم: الكبدة واللسان. ينبغي أن نلف الرز المرشوش بالمرق في حفنات صغيرة، ومن الضروري باليد اليمنى، ومن ثم إلقاؤها في الفم، أما اليد اليسرى فليست محببة، ولذلك لا يتم غسلها عند الأكل ولا يأكلون بها. أخذت

أجمع العظام المقفرة الخالية من اللحم بانتظام على الصينية المكسورة التي يقع عليها طبق الطعام، وذلك لأن ربة البيت لا ترمي هذه العظام بعد العشاء، وإنما يتم تكسيرها قطعة قطعة ويمتصون منها المخ بكل دقة ويهرؤون البقايا أيضًا، إنهم هنا يأكلون اللحم مع الرز بصورة نادرة، لكننا الآن في وليمة، ومع الطعام الوفير يشربون الماء، ثم يقدمون بعد الأكل الشاي بلبن الشياه. وقد اعتاد سكان سقطرى مؤخرًا على هذا الترف، لأن الشاي والقهوة يستوردان من اليابسة، وهناك في الجبال كثيرون لم يتذوقوا لا هذا ولا ذاك حتى اليوم.

بعد تناول الشاي يدخن الرجال، مستخدمين غليونات من عظام ساق الخروف، يتم حشو أحد طرفيها بتبغ هولندي رخيص جاء به إلى الجزيرة التجار الحضارمة.

حدثتني حليمة عن رحلتها إلى حديبو، عاصمة الجزيرة، عندما حل البحارة السوفيت ضيوفًا هناك. ولعله من المستبعد أن يكون ستانيسلاف الكسيفيتش بلوتينسكي، قبطان سفين البحث العلمي «زمرد» التي جنحت لعدة أيام في فرضة عند سواحل سقطرى، قد تصور بالقدر الكامل ما يعنيه أول عرض للأفلام السينمائية، التي جاء بها الشباب معهم من السفينة الروسية، بالنسبة لسكان الجزيرة الذين بالكاد أطلوا على رحاب الحضارة المعاصرة خلال العامين الأخيرين.

في الساحة الرئيسة في حديبو، بالقرب من بناية القصر السلطاني السابق، ثبتت الشاشة على الحائط، وعلى الأرض مباشرة جلس الرجال، وعندما بدأ العرض جلست النساء من ورائهم على شكل نصف دائري. وعلى مدى ثلاثة أيام جاء حتى رعاة الماشية من المناطق البعيدة في الجزيرة لمشاهدة

«المرأة الحية». ولكم أن تتصوروا هذه اللوحة: بناية طينية قديمة مع أسيجة على النوافذ، الساحة مغطاة بالتراب، ومنها تتفرع مختلف الشوارع المتعرجة الضيقة، تتمدد في وسط الساحة ماسورة مدفعية قديمة، من بقايا الحصن العسكري البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي، وقد قامت في عهد السلطان بدور منصة الإعدام، وحول ذلك جمهور متنوع من الناس، كثيرون منهم لا يعرفون شيئًا ليس فقط عن الاتحاد السوفيتي البعيد، ولكن بشكل عام حتى عن أية منطقة أبعد من حضرموت... وها هي في الأفلام السوفيتية على الشاشة!! لقد حظيت بنجاح خاص اللوحات الخاصة بالحرب الوطنية العظمى، التي نالت الإعجاب، ومن الصعب التصديق أن السينما في وقتنا الحاضر يمكن أن تثير مثل هذه الدهشة. لقد كانت بالنسبة للسقطرين شيئا غير معروف البته، وبين الفينة والأخرى أطلقت النساء صرخات «يا محمد، يا محمد» وهذه الصرخة، هي استغاثة بالنبي محمد (ص) ويطلقها السقطريون لأي سبب كان، ويمكن أن تعبر عن الرضى والسرور أو الخوف أو الأعجاب وتردد أيضًا في التعاويذ.

ما إن سمعت حليمة عن «المرأة الحية» حتى ذهبت مع آخرين من سكان كدح مشيًا على الأقدام، لمدة أربع ساعات كاملة، لمشاهدة السينما. وها هي الآن تروي لي:

- كان العرض جميلًا جدًا. إلّا أن ما أرعبنا بشدة، حينما عرضوا ذلك الإنسان الضخم، رأسه هكذا بحجم هذا المنزل، ولله الحمد أن ذلك لم يطل، لأننا كنا قد أردنا الهروب من الخوف، وفيما بعد ظهر لي ذلك الجني الكبير في الليل، ولكن النبي محمد (ص) أنقذني منه.



لقد أتضح أن هذا «الجني الكبير» ليس إلّا أوليغ بابوف في فيلم عن السيرك الروسي، عرضه بحارتنا لسكان الجزيرة، وقد ظهر وجهه البسيط في لقطة مكبرة على الشاشة وهو ما أفزع النساء المشاهدات.

نغادر المنزل المضياف، فتودعنا النساء حتى وصولنا إلى السيارة ووجهن لنا الدعوة بالمجيء أيضًا. إن ضيافتهم على ما يبدو لا تعرف الحدود.

بعد عدة أيام نذهب إلى الشرق، باتجاه رأس مومي، في الطرف الشرقي للجزيرة. السيارات تمر هنا في النادر، وبشكل عام فإن أول سيارة ظهرت في الجزيرة كانت منذ ثلاثة أو أربعة أعوام فقط. في الطريق نشاهد من حين لآخر بدويين ما إن يلمحون السيارة من السهول البعيدة حتى يقتربون إلى الطريق ملوحين بأيديهم، طالبين نقلهم، وسرعان ما اكتظت سيارتنا «لاندروفر» المكشوفة حتى النهاية، وبصعوبة تثب السيارة فوق الأحجار، وتثير فوقنا الغبار الرملي الأحمر، بذراته الصغيرة التي تستقر فوق الشعر وتملأ الحواجب والأهداب، ويتحول الكل إلى اللون الأشقر الملتهب. وبين الحين والآخر يطلب البدويون التوقف لشعورهم بالغثيان طوال الوقت، لعدم تعودهم على ركوب السيارات، وحتى اليوم فإن البدويين الذين ينزلون من الجبال إلى الوديان أو الشواطئ يهابون السيارات لأنهم يرونها للمرة الأولى، ومع ذلك فإنهم يقفون أمام هذا الشيء الغريب بثقة.

أحد هؤلاء الجبليين صادفناه بالقرب من رأس مومي. رأى سيارتنا «اللاندروفر» على شاطئ البحر (كنا قد توقفنا لقضاء الحاجة قرب مغارة للرعاة) وأخذ الشيخ السقطري يقترب ممسكًا رأسه الحليق بكبرياء، وبشجاعة اقترب من السيارة، ولحقت به بوجل امرأة صغيرة بثوب أخضر

وبين يديها طفل، وطفل آخر يمسك بيدها، محلوق الرأس، برزت فوق هامته ذوائب من الشعر، وحول الرأس بقيت هالة رفيعة من الشعر فقط، إنه يستطلع بفضول هذا «الكائن» غير المعروف. اقترب البدوي من السيارة وتوقف عند المحرك، وبدأ الحديث مخاطبًا «اللاندروفر»:

من أوي؟ مي أوأو جيدحك؟ («من أنت؟ ومن أين جئت؟»)

حصل لنا تعريف أسرة بـ «بالأجانب» وحين تنزهنا بالسيارة على طول الشاطئ أصبح البدويون على ما يبدو مسرورين رغم أنهم لم يعبِّروا عن أعجابهم جهارًا.

في الطريق إلى الشرق، على بعد بضعة كيلومترات من العاصمة، تتراءى عدة بيوت، شيدت كما يبدو حديثًا، وبالقرب منها يجلس بعض الرجال الملتحين تحت مظلة من الأغصان، يشابهون اليمنيين، ويلبسون «الفوطة»، وهي تنورة رجالية يمنية، بل إن أحدهم يلبس البنطلون. نخرج من السيارة، ونتعارف معهم، والحقيقة أن لهجتهم يمنية، وقد اتضح أنهم نفس «مجموعة التطوير» التي سمعت عنها كثيرًا في عدن، هكذا يسمون المبعدين إلى الجزيرة من محتالي القمار، الذين يسرقون الأمتعة من مقاهي عدن الرخيصة، من خلال لعبهم الورق والنصب على الوافدين إلى المدينة من «المنهمكين في الملذات» (أي المخدرين بالقات الذي يمضغه جميع اليمنيين في الأعياد) من الفلاحين وغيرهم من أبناء المحافظات، وتقود الحكومة حملة ضد هذا الصنف من الناس، وترسل النصابين والمحتالين إلى سقطرى، حيث يكون عليهم خلال بضعة سنوات حفر الآبار، لأن المياه في الجزيرة غير كافية، بصورة مفجعة. ويأتون لمحتالي القمار السابقين بالمعدات والغذاء (تؤخذ

قيمتها من رواتبهم) وحتى لا يستاؤون سموهم «مجموعة تطوير الجزيرة». وأعتقد أن هذا القرار حكيم. ضيّفنا لاعبو القمار بالقهوة اليمنية اللذيذة، ويشكون لنا من مصيرهم، ومن طعامهم الرديء، ومن الرز المهروم الذي يأتونهم به عوضًا عن الأكل. وها هم يحسبون ومن جديد، عدة مرات، الوقت المطلوب لإنهاء العمل، وخلال عدة أشهر سيعودون إلى بيوتهم.

وقيل لي إنه ما زال يعيش في جبال رأس مومي أناس أسوأ من غيرهم، في حضيض درجات التطور وهم أكثر من غيرهم شبهًا بالأوروبيين، فهم بيض البشرة، رشيقون وعيونهم زرقاء وشعرهم أشقر، ويعتقد سكان الجزيرة أن أجمل نساء سقطرى يعشن بشكل خاص هناك، لكن المناطق الجبلية في رأس مومي صعبة الوصول، وهو السبب الذي جعلنا نلغي رحلتنا إلى هناك، لأنها تتطلب استعدادًا جادًا في مرة قادمة.

والآن أمامنا رحلة إلى قلنسية، ويعتقد أن اسم قلنسية مشتق من اسم مدينة بالينسيا في أندلس القرون الوسطى، إسبانيا الإسلامية، ومن المحتمل أن يكون هذا الاسم وكثير من الأسماء الأخرى في الجزيرة، موري، ديشس، جالاسونه وموري، قد جاء به البرتغاليون إلى هنا. لكن هناك رواية أخرى ترجع اسم المدينة إلى «إقليسيا» الإغريقية.

وقلنسية هي المدينة الثانية من حيث الكبر بعد حديبو (يعيش الآن هنا ألف وخمسمائة من السكان) وتقع في الطرف الغربي للجزيرة، وهي مدينة صيادين.

إن ما يلفت النظر هنا هو النظافة التي لا شائبة فيها للبيوت المبنية من الطين الأصفر المائل إلى الحمرة، بجدرانها البيضاء الساطعة، المطلية بالكلس المنتج محليًا (النورة) وهي تحضَّر من شظايا الشعب المرجانية، التي يحرقونها هنا،

كما في حديبو وفي المناطق الساحلية للجزيرة العربية، في حفرة دائرية، بنيت من الداخل بالأحجار، ويضعون طبقات من أغصان النخيل بين قطع الشُّعب المرجانية ثم يحرقونها. كذلك تلفت الانتباه أبواب البيوت القلنسية، وهي خشبية من قطع مزينة بنقوش جميلة مطرزة بتورمات معدنية.

وقلنسية أكبر منتج للحوم أسماك القرش المجففة في الجزيرة، وهي تسمى هنا (لخوم) ويصطاد الصيادون المحليون أسماك القرش بزوارقهم الصغيرة (هوري أو صنبوق)، وهناك أيضًا يقطعونها على الساحل ويخرجون ما بداخلها ويفصلون زعانفها ثم يضعونها في تجاويف عملت في الأرض، ويسكبون عليها محاليل محلية. ويتم تمليح اللحم وتجفيفه في الشمس من شهر إلى أربعة أشهر، حتى يصبح شبيه بالخشبة: صلب وذو لون بني أسود، ومنظره غير صالح للأكل. وعند استخدامه للأكل يقطعون وصل لحم القرش المجففة ويغلونها.

ومن كبد القرش يتم إذابة الزيت الذي يطلون به الزوارق، ويعتقدون أن زيت سمك القرش يوقف الدم جيدًا، ويبيع الصيادون بضاعتهم في إفريقيا وفي حضرموت حيث تحظى لحوم أسماك القرش بإقبال كبير في الأسواق، وهي تعد واحدة من المواد الرئيسة للتغذية، سواء في حضرموت أو في المناطق الساحلية لليمن وشرق إفريقيا.

يصطادون أسماك القرش بوسائل متعددة، أو على الأصح بمساعدة مختلف الأدوات والأعتدة. والشباك التي تعني بالسقطرية (لويوح) هي نادرة الوجود في الجزيرة. وبغية الاصطياد يستخدمون في الأساس عدة تسمى (شكله) بين عوامتين (بويه)، يشهدها حبل (قيد) تتدلى منه خطاطيف (اكلها).

وتزود إحدى العوامات بالحبال مع المرساة (بروصي)، ويتركون عدة الصيد مع طعوم محضرة من الأسماك في الخطاطيف طوال الليل. وفي الصباح يركب الصيادون البحر على زوارقهم (الهوري) لتفقد عدة الصيد وجمع الغنيمة. ويصيبون القرش أيضًا بمساعدة المسلة وهي حربة مع الحبال لصيد الحيوانات المائية، يسددونها في سمك القرش عندما يسبح قرب الزورق حول الطعوم المتروكة فوق الماء، فيجهزون عليه، ويقضون عليه بضربه قاضية في الرأس ثم يأخذونه إلى الساحل.

وفي قلنسية يصطادون كذلك أنواعًا كثيرة من الأسماك الأخرى، ويقع الصيادون أحيانًا على سلاحف بحرية ضخمة، وهذه الحيوانات غير المؤذية لم يبق منها في العالم إلّا القليل، ومع ذلك فإن لحم السلاحف وبيضها ليس أكلة حلوة، وإنما طعام عادي تستطيع الأسرة ان تتغذى منه عدة أيام. وتتناثر على الساحل كثير من دروع السلاحف وجماجمها، وهذا هو كل ما يتبقى من الروائع البحرية، التي يبلغ طولها مترين.

في زمن ما اشهرت القرى الساحلية في سقطرى بصيد اللؤلؤ، الحرفة القديمة للسقطريين. وكان المصريون القدماء قد جلبوا اللؤلؤ من «بلاد بُونت». أما الآن فلم يتبقَّ في الجزيرة إلّا القليل من صيادي اللؤلؤ، وهم يغوصون في البحر في مواسم الربيع والصيف ويتجهون على زوارق كبيرة إلى أعماق بعيدة إلى حد ما، وفي البداية يلاحظ الغواصون قاع البحر من الأعلى، من خلال علبة صفيح يعملون فيها فتحة مغطاة بالزجاج، وحين يرى الغواص اللؤلؤ يسد فتحتي الأنف بملقاط من قرن الضأن أو الأبقار، ويستنشق أكبر كمية من الهواء ويأخذ حمولة الغوص الثقيلة التي تسهل نزوله سريعًا إلى القاع،

وفي الأعلى يكون هناك شخص يؤمنه من خلال الإمساك بالحبل الذي يربط الغواص بالزورق.

وإجمالًا فإن اللؤلؤ السقطري أقل جودة من البحريني (المقصود ذلك الذي يصطادونه من الخليج العربي) وهو في العادة صغير الحجم، ولا وجود تقريبًا للؤلؤ الكبير، وتقل أيضًا الألوان غير العادية ضمن كمية اللؤلؤ المصطاد: الوردي، الأزرق، والذهبي، ويكون الحصول على أثمن صنف، وهو ما يعرف باللؤلؤ الأسود من الأمور النادرة جدًا. ويبيع الغواصون اللؤلؤ لتاجر سمسار، وبدوره يبيعها لتاجر عدني أو لصائغ مجوهرات، وفي الكثير من الحالات فإنه يقايض صيادي اللؤلؤ بمواد غذائية يتم الحصول عليها من اليابسة، وفي النتيجة يحصل الغواصون على حصة ضئيلة من تسعيرة السوق للؤلؤ الذي استخرجوه. ومع كل ذلك فإن مستوى معيشتهم مقبول إلى حد ما، مقارنة بخلفية الفقر العام لسكان الجزيرة، وبالمقابل فإن ديمومة حياتهم، أو متوسط أعمارهم، أقل بكثير، لأن الغوص المضني والبقاء طويلًا في المياه المالحة دون وجود أدوات مساعدة يؤثر تأثيرًا مضرًا بصحتهم. ويصاب صيادو اللؤلؤ بضعف البصر وتشقق وتقرح الجلد، وتصاب الأذن والرأس بالمرض من جراء ضغط المياه على طبلة الأذن.

في الماضي وجد اللؤلؤ -كما يقولون- في كل عشر صدف أما الآن فأصبح نادرًا جدًا. وحين يعرف صيادو اللؤلؤ أن أحدًا من الأجانب قد وصل إلى الجزيرة فإنهم يعرضون عليه قليلًا من اللؤلؤ لشرائها منهم، على أمل أن يربحوا منه أكثر من السماسرة. وفي حديبو سار ورائي طويلًا رجل كهل بعيون

محمرة، محاولًا أن يدس لي حفنة من اللؤلؤ الصغير الرديء النوعية كان قد لفها بنظام في خرقة حمراء.

كتب الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة (١٣٠٤- ١٣٧٨م) عن صيد اللؤلؤ في الخليج العربي يقول:

«فإذا كان شهر إبريل وشهر مايو تأتي إليه القوارب كثيرة وتجار فارس والبحرين والقطيف، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئًا يكسوه من عظم الغيلم، وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضًا شكلًا شبه المقراض يشده على أنفه، ثم يربط حبلًا في وسطه، ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك، فإذا وصل إلى قاع البحر يجد الصدف هناك فيما بين الأحجار الصغار مثبتًا في الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بحديده عنده معدة لذلك، ويجعلها في مخلاه جلد منوطة بعنقه، فإذا ضاق نفسه حرك الحبل، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه إلى القارب، فتؤخذ منه المخلاه ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة: فإذا باشرها الهواء جمدت فصارت جواهر، فيجتمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خُمسه والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب، وأكثرهم يكون له الدَّين على الغواصين فيأخذ الجواهر في دَينه أو ما وجب له منه».

ومنذ ذلك الحين لم يتغير إلّا القليل في أوضاع الغواصين الذين ينبغي عليهم رفع آلاف اللآلئ يبيعون منها للتاجر المحتكر حفنه من اللؤلؤ.

تذوقنا لحم سمك القرش مع الرز المرشوش بمرق السمك، جلسنا في كوخ الصياد القلنسي أحمد، نستمع إلى أحاديث عن حرفة الصيد، لقد بدأ



موسم الرياح، لذلك تهمد الحياة الآن هنا، الصيادون لا يذهبون إلى البحر، والساكنون يلزمون بيوتهم، لأن الرياح تبلغ من القوة أحيانًا بحيث يستحيل السير في مواجهة عواصفها المحملة بالغبار والحصى الصغير التي تسوط الوجه وتصفع الجسم بشدة.

في الأطلس البحري للأدميرال إ.س.إيساكوف، تتميز سقطرى في يونيو - أغسطس ضمن المناطق الأخرى في العالم بصبغة قاتمة: هنا تهب واحدة من أقوى الرياح المحيطية، وتخطف مواسم الرياح والسيول الجارفة والجفاف حياة الكثير ليس فقط من الحيوانات، بل ومن الناس.. وفي هذا الموسم ينقطع كل اتصال بسقطرى، حتى الطائرات يمكنها أن تهبط في المطار الترابي في موري في ساعات الهدوء النادرة فقط، التي لا تحل كل يوم، بين الساعة الثالثة والخامسة نهارًا.

بغض النظر عن الرياح التي تشتد بوجه خاص بعد الساعة الحادية عشر مساءً، فمع حلول الظلام، تدوي هنا أصوات الطبول، وهي الآلة الموسيقية الوحيدة عند سكان الجزيرة تقريبًا. ها هي الشبيبة تجتمع في الرقصة الليلية (الرَّمسة). يرقص الشباب والشابات على الضربات الإيقاعية للطبل وتصفيق الأكف في الظلام الكامل على ضوء القمر منتشين بالإيقاعات، تارة يتحركون صفوفًا لملاقاة بعضهم بعضًا وتارة يتباعدون وهم يدقون الأرض بجنون بأقدام حافية. وتتواصل رقصة (الرَّمسة) أحيانًا إلى انبلاج الفجر، فالعمل في كل الأحوال غير ممكن.



الفصل الثامن

في العرس السقطري

ربطتنا بأحمد، الشاب الصغير من حديبو، صداقة قديمة، فحينما مرض أبو الفتى، حموديش مرضًا خطيرًا (أصيب كما يبدو بالتهاب رئوي) ساعده فقط البنسلين الذي أخذته معي إلى الجزيرة. كاشفني أحمد أنه منذ مدَّة يريد الزواج، إذ إنه قد بلغ العشرين من العمر، لكن والده لم يسمح له. وها هو أحمد في النهاية قد جاء ليدعوني إلى العرس: لقد تحققت أمنيته القديمة.

- الزواج، مسألة جادة، وتتطلب على الأرجح استعدادًا كبيرًا؟ سألت الشاب حين جلسنا على حصيرة النخيل وصببنا لكل منا قدح شاي لذيذ بلبن الماعز والهيل.
- نعم، ومن أجل أن تتزوج ينبغي أن تقف على قدميك، لأنها تنتظرك مسئولية رعاية الأسرة، أوضح أحمد.
- ولكن أليس المهر عندكم في الجزيرة قليل، ربما عشرة رؤوس من الأغنام يمكن ان تكون متجمعة لديك؟ سألته أنا.
- ليس الأمر في المهر فقط - أجاب أحمد- حتى لو كانت النقود أو الاغنام غير كافية، فأنا أستطيع الاستلاف من الأقرباء أو من الناس الآخرين، فنحن نساعد بعضنا البعض دائمًا، ووالدي قد ساعد الكثيرين، وعند



الحاجة القصوى يمكنني الذهاب لطلب المساعدة في الجبال عند أفراد القبيلة، ومع كل ذلك، فإن الآباء ما كان لهم أن يوافقوا لي على الزواج، لو أنني لا استطيع بعد تحمل مسئولية الأسرة وتدبير الشئون المنزلية.

- وهل وافق والدك الآن؟

- نعم، وافق الآن على الفور، حتى إنه وعد بدفع المهر - قال أحمد- وقد كدت أطلب من صديقي الذهاب معي لإقناع والدي لكن الأمر لم يعد يتطلب ذلك.

- ومن هي الفتاة التي اخترتها، أجَبَليّة؟ تساءلت أنا.

- نعم، الاختيار بالنسبة لي غير مهم - قال أحمد ببساطة- المهم أن أتزوج لأنّني قد كبرت، وكان صديق لي قد نصحني بفتاة هي بنت حمدينو، مقدم قبيلة قعرهي.

- لا شك أنها فتاة جميلة؟

- دون شك، أجاب الشاب بسرور.

- وهل حصلت على موافقة آباء الفتاة وموافقتها هي شخصيًا؟

- ماذا دهاك، أنا لا استطيع الظهور هناك قبل الزفاف -أجاب أحمد- وعندما قبل أبي أن يخطبها لي اصطحب معه صديقي، واتجها معًا إلى أسرة الفتاة وتحدثا مع والد فاطمة الشيخ حمدينو، وفي البداية تشبت الشيخ الكهل برأيه، قائلًا إنه يشك في أن يكون قد آن الأوان لزواج فاطمة، ويمكنه أن يعطي الرد فقط بعد أن تراها (شيبيب) وتقرر فيما إذا كان يمكن للبنت أن تتزوج.

فيما بعد رووا لي بالتفصيل عن هذه العادة المتعبة في سقطرى، وعلى أية حال، ففي سقطرى، كما في اليمن غالبًا ما يتزوجون مبكرًا جدًا، إذ تتزوج الفتيات في سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر، وأحيانًا يزوج الآباء البنات في سن ما بين العاشرة أو الثالثة عشر. وعادة فإن الآباء بأنفسهم لا يعرفون عمر بناتهم، ولكي يحددون هل بلغت الفتاة يستدعون عجوزًا مجربة (شيبيب) هي من تحدد هل حان موعد زواج الفتاة وتشهد على عذريتها. أما الشباب فيتزوجون في سن متأخرة، ولكن الأسر الميسورة يزوجون أولادهم أحيانًا في سن الثالثة عشر. وقد قابلت شابًا لم يتجاوز الثلاثين من العمر، ومع ذلك فلديه حفيد أيضًا.

- مع كل ذلك فإن الوالد أقنع الشيخ موضحًا له إنَّني لست (عربي) ولن أمس الفتاة بأذى، حتى لو كانت طفلة صغيرة -واصل أحمد- إذ إنه يمكن الانتظار، والشيء الرئيس هو الزواج.

و(عربي) هنا تعني «الغريب»، هكذا يطلقون على جميع الوافدين إلى الجزيرة من اليابسة. وهؤلاء الغرباء يأتون باستمرار إلى الجزيرة للزواج من السقطريات، وينحصر الأمر في أن المَهْر هنا أقل بكثير عما هو في اليابسة، وإلى وقت قريب كان يمكن الزواج مقابل خمسة دنانير، عليك دفعها لأسرة الفتاة فتصبح زوجتك. أما الآن فإن المهر أكثر والزواج أصعب، ولكنه مع ذلك يظل أسهل مما في اليمن، وما زال المهر حتى الآن في بعض الأماكن يدفع بالشكل العيني، أي من الأغنام والماعز، وفي السابق كانت الأسر الفقيرة تزوج بناتها في حالات كثيرة على أي رجل عجوز يدفع مهرًا أكثر وهدايا ثمينة لكل أفراد الأسرة.



وكان الأمر في الطلاق أسهل مما في الزواج، فالرجل يترك المرأة ويأخذ من جديد النقود أو الماشية التي سبق أن دفعها لها، وبمقابل ذلك يمكنه أن يتزوج من جديد أكثر من مرة. وحتى الاستقلال عام ١٩٦٧م كان التجار الأغنياء وملاك زوارق الصيد (الصنابق والهواري) من أقرباء السلطان بن عفرار يعيشون مع زوجاتهم عامين أو ثلاثة أعوام، ثم يستبدلونهن بأخريات أكثر صغرًا، أما الآن فقد منع قانون الأسرة الجديد الذي شرعته حكومة اليمن الديمقراطية استعادة المهر وحدد فارق السن بين الزوجين بعشرين عامًا كحد أقصى.

شاهدت في حديبو رجلًا كهلًا كان قد اشتهر بـــ «كثرة الزواج» في حياته الأسرية، فقد تزوج أكثر من ستين امرأة! وما إن لمح الشيخ العجوز كاميرا التصوير في يدي حتى ركض عائدًا إلى البيت مغطيًا وجهه بيديه، وقد أخذوا منه مؤخرًا الزوارق والصنابيق ويمتلكها الآن الصيادون بأنفسهم، ويخاف المذنب القديم كل شيء على هذه الأرض.

- اسمع يا أحمد -أقول للفتى- أليس من الأفضل لك أن لا تتزوج على مثل هذه الفتاة الصغيرة؟

- لا تقلق، إذا لم تسمح (شيبيب) فلن أقترب منها مطلقًا طالما أنها لم تكبر وتبلغ مبلغ النساء، يؤكد أحمد ويواصل - ثم أن حميدون قد وافق، وتم الاتفاق على المهر والهدايا وعلى أن يكون الزواج هذا اليوم. وقد ذهبت الأم والأخ بالفتاة صباح اليوم في زيارة وسيعودان بها فقط بعد غروب الشمس، لكي لا ترى الاستعدادات للزواج وكي لا تفطن أي شيء.

- وماذا بعد ذلك؟ سألت أنا.



- في الساعة الخامسة يكون بانتظارها أمام منزلها جماعة من الرجال، ويقوم أحدهم بالهجوم عليها وتخويفها، فيما يبدأ الآخرون بقرع الطبول والغناء. وبعد ذلك تتم عملية (الطرح) وهي مراسيم تزين الفتاة. وتقوم النساء باصطحاب فاطمة إلى البيت ويجلسنها على الفراش ويعلن عن الزواج القادم، وخلال ساعة تقريبًا يفرحن ويغنين ويقرعن الطبول ويتحدثن عني، ثم تغادر النساء ويبقى معها الأقرباء فقط.
- وإذا حدث وأنها غير موافقة؟ سألته أنا.
- إنها ملزمة في نهاية الأمر أن توافق، لأن مصير كل الفتيات الزواج إن آجلا أم عاجلًا، أو ليس من أمر آخر؟ -بثقة أوضح لي أحمد- وبعد ذلك عليها أن تختار شاهدين، يذهبان مع والدي وصاحبي إلى القاضي ويؤكدان، بعد القسم على القرآن، أن الفتاة موافقة أن تتزوجني بإرادتها شخصيًا وبدون إكراه. ويمكن أن يكون الشهود من أقرباء الفتاة، على سبيل المثال والدها، وعند ذلك يسجل القاضي قراننا زوجًا وزوجة.

ها هي الأمسية الاحتفالية تحل، يجتمع عند بيت حمدينو الكثير من الناس، الرجال في جهة واحدة، والنساء في الجهة الأخرى. وقد استدعى والد أحمد إلى زفاف ابنه، فرقتين موسيقيتين (معالمة) و(تيلود)، يعرف (المعالمة) اللغة العربية وهم يعزفون على المزمار «الناي» ويقرعون الطبول وينشدون الأغاني العربية التقليدية، كما توجب التقاليد الإسلامية تأديتها في مراسيم الزفاف. وجماعة (تيلود) يقرعون الطبول أيضًا ولكنهم يغنون بالسقطرية، وهم ينشدون أغانٍ شعبية أصلية مدهشة، يتناقلها السقطريون جيلًا بعد جيل منذ قديم الأزل.



-واي، يه واي- تردد جماعة فرقة (تيلود) بحماس ويتم تكرار المقطع الشعري المتتابع، ويرقص الضيوف بحماس ويرددون بفرح وسرور تلك المقاطع، ويضربون كفًا بكف بشدة، بحيث يشكل التصفيق المدوي مع دمدمة الطبول لوحة إيقاعية فريدة. وها هم مجاميع من الشباب قد انتظموا في صف وأخذوا يقفزون على قدم واحدة ومع دوي تصفيق وهتافات المحيطين، وبكل قواهم يدقون أقدامهم على الأرض بحماس، وفي مواجهتهم يتحرك صف آخر من الفتيات بحركات رشيقة، ونظراتهن تتجه إلى الأسفل من الحياء، وتهز الفتيات أكتفاهن بخطوات أكثر بطئًا فتتماوج الثياب الحمراء، الصفراء، والخضراء، والسوداء، التي خيطت بخيوط فضية اللون، وتصلصل حلي وأدوات الزينة الكثيرة، وبدا الرقص الطويل كأنَّه رتيب لولا الإيقاعات السحرية التي دفعتني أنا للقفز في موقعي والتصفيق بضرب الكف بالأخرى وهز الرأس.

-وأين هي العروسة؟ سألت الشاب السعيد أحمد.

- إنها تجلس في البيت مع الخالة والأم -يجيب الشاب- وهي اليوم لا تملك الحق في الخروج من المنزل، وكذلك ستجلس غدًا طوال اليوم في البيت في غرفة مغلقة، ومع حلول المساء سأذهب إلى هناك مع الهدايا، وعند ذلك فقط أقضي عندها الليلة الأولى، ونصبح حينها زوجًا وزوجة، ونعيش في منزل حمدينو أيضًا مدة يومين أو ثلاثة أيام، ثم أصطحبها بعد ذلك إلى بيتي، وخلال أيام سيكون لدينا في البيت عيد آخر أدعو إليه المقربين والجيران فقط، بما في ذلك جميع نساء الجيران، وعندها ستشارك معهن فاطمة في الاحتفال.

في ذلك الوقت يأتون بطعام الضيوف، وتبدأ الوليمة، ويضعون على الحصيرة المفروشة في فناء منزل حمدينو أطباقًا كبيرة، مليئة بأكوام الرز الساخن الذي يتصاعد منه البخار وقد رش بصلصة من الفلفل الأحمر، وفوق الرز وضعت قطع من لحم الماعز المغلية، ويقدمون للضيوف أشهر وأَلَذَّ قطع اللحم، العين واللسان والكبد، وبعد أن يشبع الضيوف ينتقلون لشرب الشاي، فيما يواصل الموسيقيون العزف: ويتم إعداد طاولة خاصة بهم بعد منتصف الليل.

وفي هذا الوقت، الساعة الثالثة ليلًا، يذهب الرجال مع النساء إلى الفتاة بمرافقة حمدينو ويقوم الرجال الذين بقوا عند الباب بالغناء وقرع الطبول. وإلى الغرفة حيث تنتظر العروسة، محروسة بالأم والخالة، يدخل أحمد فقط، ويقوم بـــ(المسح)، أي يقدم الهدية لزوجة المستقبل، حيث يميل إلى ناحية فاطمة ويضع فوق رأسها ورقة مالية لا تقل عن عشرة شلنات، هي رمز الحالة الميسورة للعريس وقدرته على العناية بالأسرة، وهي هديته الأولى للعروسة، وفي ذات الوقت رؤيتها المتأخرة بعض الشيء، فيما يظل الرجال يفرحون ويرقصون حتى مطلع الفجر، حالما يحين موعد صلاة الصبح، وبعد استراحة قصيرة وتناول الفطور، يتواصل العيد من جديد.

وفي اليوم التالي تقوم (جريفة) وهي أشبه بالمنادي، بإخطار كل نساء القرية عن الزفاف، وبعد منتصف النهار يلتقين جميعًا على أنغام موسيقى الزفاف المرحة في فناء منزل العروسة، وبعد الفرح تنتقل النساء إلى المراسيم الابتهاجية لجمع النقود: تضع كل واحدة منهن على طبق خاص مبلغًا محددًا،

ويدوِّن الكاتب المدعو خصيصًا لذلك في سجل اسم كل امرأة والمبلغ الذي وضعته، وتذهب هذه النقود لوالدي العروسة. في هذا اليوم تعيد كل نساء القرية ممن لديهن بنات لأم فاطمة تلك النقود التي كانت هي قد أعطتها لهن في زمن ما في يوم زفاف بناتهن، ويضفن من عندهن إليها بعض الشيء. وعندما يحين زواج بناتهن فإن فاطمة، إذا ما كان لها حتى ذلك الوقت طفلة. ستعيد الدين وتضيف من جانبها ما تستطيع عليه أيضًا، وهذه الإضافة مع (نسبة) جديدة ستعود إلى فاطمة عندما يأتي دور ابنتها. أما إذا لم تنجب فاطمة بنات، فإنها لا تُستدعى إلى جمع النقود، وفي هذه الحالة يكون على أمها تسديد الدين، لأن النساء اللاتي لا بنات لهن لا يدفعن القسط: ربما لأنه لا يوجد لديهن من يعاد إليه الدَّين؟

يسجل الكاتب بعناية بالغة هذه الحسابات المعقدة، رغم أن النساء بدون ذلك يحفظن هذا في الذاكرة لأعوام طويلة، كما قالوا لي. وبمثل أواصر المساعدة المتبادلة تلك وروح التعاون ترتبط أجيال النساء السقطرية. وفي الجبال حيث لا يعرفون النقود تقريبًا، يقدمون المساعدات بشكلها العيني من الأغنام والسمن.

إن هذه العادة المهمة تعكس الدور الكبير الذي تؤديه المرأة في المجتمع السقطري وفي حياة الأسرة الاقتصادية، ومع ذلك فقد لاحظت أن والد فاطمة أبدى قلقًا أكثر بصدد ما إذا اتفقت النساء مع جريفة، وفيما إذا سيحضرون جميعًا في الوقت المحدد.

بعد استكمال النساء استعادة ديونهن، يتم دعوتهن إلى مائدة عيدية، وتوضع على الحصيرة صحون من السمن البقري السائل وأقداح اللبن. وللضيوف



يقصون خصيصًا قِرَبًا من التمور المنقاة من النواة، كانت قد ملئت صيفًا.

في غرفة فاطمة تستلقي كومة من الحلي الفضية التي أهداها لها والدها: من ستة إلى عشرة أساور لكل يد، وأساور للأرجل وعدة أزواج من الأقراط. في المساء يأتي أحمد بهداياه (السبحة) وهي ثياب متعددة الألوان: صفراء، حمراء، خضراء وسوداء، وكذلك الكثير من الروائح العطرية والدهون ذات الرائحة الشذية لتدليك ومرخ البدن وكحل للعيون. وبعد يوم يأتي الجيران إلى فاطمة لرؤية الهدايا التي قدمها لها الزوج.

عادة، ما إن تستلم العروسة الهدايا من أقربائها بعد وليمة الزفاف حتى تدقق:

- هل كل هذه الأشياء ملكنا أم «للعرض» حتى يراها الناس؟

وفي حقيقة الأمر، أن الأسرة المعوزة تقترض من الأقرباء الأشياء التي يتم إهدائها للعروسة بحضور الضيوف، ومثل هذه الهدايا هي للعرض (دي فانه) وتعني حرفيًا «للوجه» حتى لا يحكم الضيوف على الأسرة بالبخل، وبعد أن يشاهد الضيوف والجيران الهدايا ويتفحصونها ويلمسونها ويعطونها تقييهم ثم يتفرقون كل إلى بيته، عندها يتم إعادة الأشياء إلى أصاحبها، ولذلك ما إن تعرف فاطمة الآن، أن كل هذه الهدايا ستبقى لها ستفرح كثيرًا جدًا.

عندما تدخل العروسة للمرة الأولى بيت العريس ينبغي حسب التقاليد القديمة أن ينحروا خروفًا وينشرون دمه الحار والطازج على عتبة الدار تحت أقدامها، لتتخطى من خلال الدم، وفي أسوأ الحالات، يطلون بالدم قوائم الباب. تقود الجارات فاطمة إلى بيت العريس ويراقبن هل اتبعت كل العادات...

وخلال عدة أيام فقط تطلعت إلى بيت أحمد فرأيت زوجته الصغيرة. فتاة في الثالثة عشر من العمر، ما زالت مرتبكة في دورها الجديد. أحضرت لنا



الشاهي على الصحن وقد دهن وجهها الغض بزيت أصفر عطر الرائحة وفي أحد جانبي أنفها تسطع نقطة ذهبية وعلى أذنيها أقراط كبيرة، ومع ذلك يبدو عليها الآن ذلك الاعتزاز وتلك الرشاقة التي تمتاز بهما النساء السقطريات.



الفصل التاسع
في جبال حَجْهَر

بعد عدة أيام، وفي صباح باكر، انطلقنا من حديبو إلى واحدة من المناطق الصعبة البلوغ في الجزيرة، هي جبال حَجْهَر، ارتحلنا بخمستنا: أنا والمرافق عامر وضابط وجنديين من الحامية المحلية مع جهاز لاسلكي، هنا يمكن حدوث أي شيء، يقول لي الضابط، لأن عددًا من السجناء قد هربوا مؤخرًا من تحت الحراسة، وهم يتخفون في مكان ما هنا في الجبال.

نصعد بانقضاض في سفح منحدر لكي نتجاوز الارتفاع المتتابع، ومن بين الصخور تتبين جماعة من الناس: رجل كهل بلحية جميلة شيباء، وعصابة واحدة رُبطت على وركه، مع سكينة منزلية ملعقة عند الخصر، وامرأة طاعنة في السن، وشابة صغيرة ذات جمال باهر، عيونها كبيرة مغطاة برموش كثيفة، وأنف دقيق يكاد أن يتكور، وتتجلى السمرة اللطيفة للبشرة من الثوب الأخضر الساطع الذي خُيطت أطرافه بخيوط فضية، اسم الفتاة «سُوما»، وهي تسوق الحمار بحمولته، فالأسرة تعود إلى البيت في الجبال بعد رحلة على الشاطئ، ادخروا خلالها التمور التي تم تنقيتها من العجمات ثم جمعت في قربة من جلد الماعز، وهذه الاحتياطات ينبغي أن تكفي حتى الموسم القادم، لم تتخفَ «سوما» عنا، بل احتفظت باستقلاليتها وشجاعتها، خاض معها عامر الحديث،

أما صالح، جندي من عدن مرافق لنا، فتمعن بالبنت، وضمّ إحدى شفتيه على الأخرى وتمطق لسانه كأنه يكلم نفسه: هذه هي، أنها مناسبة على ما يبدو!، إن صالح يرغب في الزواج، والسقطريات مشهورات بجمالهن، ولا يقل عن ذلك أهمية بالنسبة للعريس ذي الدخل المحدود، المهر مقابل العروسة في سقطرى والذي يقل كثيرًا جدًا عما هو عليه الحال في بقية مناطق اليمن.

في وقت متأخر روى لي عامر قصة سوما، فمنذ ثلاث سنوات تزوجت على أحد أبناء قبيلتها، وبعد ليلة الزفاف بقليل سافر للعمل في إحدى إمارات الخليج العربي، وأصبحت سوما وحيدة، ومنذ ذلك الوقت لا تعرف أية أخبار عن زوجها، وتستطيع سوما أن تحصل على الطلاق، لأن النساء يفعلن ذلك في كثير من الأحيان في الوقت الحاضر، لكنها لا تريد ذلك، وهي تفضل الانتظار حتى وإن كان ذلك صعبًا عليها كوحيدة، سألها عامر هل ترغب أن تتزوج من صالح، قائلًا لها:

- انظري إنه شاب من ذهب! رمقت سوما صالح بنظرة سريعة وقالت:

- لا، إنه نحيف جدًا، ولن يبرد حرارتي.

وربما للمقارنة رمقتني أنا، وفجأة قالت برزانة:

- هذا هو، ربما قد ينفع، ولكن مع ذلك فالأفضل لي أن أنتظر.

خلال بضع ساعات من الصعود وجدنا أنفسنا في وادٍ جبلي، غاية في الجمال بصورة مدهشة، وعلى مقربة بدت أشجار البرتقال بأغصانها الكثيرة التي تحمل ثمارًا خضراء كثيرة. وفي أسفل الفجاج غير العميقة تخر جداول المياه. نستريح قليلًا هنا من وعْثَاءِ السَّفَر، بدا لنا البرتقال بمذاقة شبيهًا بالليمون، وليس عبثًا أن يسميه العرب «ليم حالي» «ليمون حلو»، وبعد أن أكلنا من المعلبات نزلنا

إلى جدول مياه لنشرب منه، وما إن انحنيت فوق الماء حتى رأيت سرطانات أرجوانية اللون تتحرك في قاعه.

بعد ثلاث ساعات من صعود هضبة حَجْهَر، نصل في نهاية الأمر إلى موقع سكن القبائل الجبلية. أمامنا ينفتح منظر بهي مدهش: أودية خضراء، ترتفع فوقها صخور بيضاء، حيث يعيش فقط المعز الجبلي وسكان الكهوف القليلون. إن ظروف معيشة الجبليين في سقطرى صعبة جدًا للغاية، ولا غرابة أنه يستحيل التفوق عليهم في المشي، إذ أنهم يمشون طوال أيام بكاملها حفاة متسكعون في الجبال، ويضطرون في بعض الأحيان إلى النزول بأمتعتهم الكاملة ومواشيهم إلى المناطق الساحلية، وقد اعتاد الجبليون على البساطة والتواضع، وهم يستطيعون النوم في أي مكان، على الصخور أو فوق التراب أو في الكهوف.

في جبال حَجْهَر كثيرًا ما يكون البرد ورذاذ المطر الخفيف مستمرًا، وفي بعض المواسم تتغطى القرى بغشاوة من السحب المتراكمة، وهكذا تكون الدنيا مظلمة على مسافة متر واحد.

يلبس الجبليون ربطة واحدة حول الورك فقط، وهي عبارة عن قطعة قماش خشنة ومتسخة، ذات لون أصفر، تلتف حول الورك ولا تصل حتى إلى الركبة، ويلقون في بعض الأحيان على الكتف قطعة ثانية كهذه أيضًا. لكن الجزء الأكبر من الرجال عراة الأجسام حتى الخصر.

ويعيش الجبليون في الكهوف والمغارات أو في بيوت شيدت من أحجار الصخور الملساء، وهي غير مثبتة بعضها ببعض، وجميع الأثاث عبارة عن عدد من الحصائر والقدور، وفي المواقد يضرمون النار. ولا يعرف اقتصاد



الجبليين العيني المقايضة والتبادل تقريبًا، فهم معزولون عن العالم الخارجي لانعدام الطرق الجبلية، ولا توجد لديهم حتى عيدان الثقاب، وفي اعتقادي إن هذا المكان أحد الأماكن القليلة على الكرة الأرضية حيث ما زال الحصول على النار يتم حتى الآن بالطريقة البدائية: إذ يقدحون حجرًا فوق حجر بضربات عدة، أو يستخدمون احتكاك اثنتين من العصي، وهذه العصي يتم الحصول عليها من شجرة تنمو فقط في سقطرى، في واحدة منهما تجويف غير كبير، ويقعد الجبلي على الأرض قابضًا بشدّة على قطعة الشجرة بين أقدامه، ويضع في التجويف طرف العصا الثانية، ويبدأ بتدويرها بسرعة براحيته من الأعلى إلى الأسفل، ويضغط في ذات الوقت على العصا السفلى، وسرعان ما تبدأ العصا بالاحتراق، وفي المحز الذي عمل بجانب التجويف، يضعون كمية من النشارة أو الروث الجاف، وهكذا تكون شعلة النار جاهزة، ويقوم الجبليون بكل هذه العملية في أقل من دقيقتين.

وأعترف أنّني حاولت طويلًا تعلم الحصول على النار بهذه الطريقة، وفركت حتى بان الدم على راحة اليد، وبعد عشر دقائق فقط من الفرك فوق آلة الاختبار بدأ الدخان يتصاعد.

تثير الدهشة مساكن الجبلين المبنية من الحجارة، وهي حجارة كبيرة إلى حد ما، ويبدو وكأن رفعها يدويًا أمر غير ممكن. ومن غير المعروف مطلقًا لماذا لا يتهدم مثل هذا البناء غير المتين أمام مرأى العين، ومع ذلك فإن حجارة الكوخ تقف بصورة ثابتة للغاية. ندخل في واحدة من هذه «المساكن». وعوضًا عن الباب توجد فتحة مباشرة، وفي الداخل «غرفة» واحدة فقط، فرشت أرضيتها بالتبن، وقرب الحائط أدوات بسيطة.

وفي الخارج قبل الدخول توجد مساحة صغيرة، محاطة بسور غير مرتفع بحدود نصف متر تقريبًا ومن الأحجار نفسها أيضًا، وهذا هو فناء البيت أو الحوش. وبجانب المسكن الحجري صخرة مسطحة كبيرة، ترتفع قليلًا من ناحية واحدة بحدود نصف متر، ووضعت من تحتها أحجار، أتضح أن هذه هي «المنامة الزوجية» لصاحبي البيت، وينام الأطفال في «المنزل» وفي الليل يعتلي الآباء على اللوح الحجري حيث ينتظرهم فراش من التبن.

في الجبال، بعيدًا عن القرية يقع منزل طنوف، وهو رجل ميسور إلى حد ما، فلديه خمسة عشر رأسًا من الأبقار وبضع عشرات من الماعز والضأن، وبجانب البيت جنينة (بمساحة لا تزيد عن ١٠٠متر٢) تنمو فيها بعض الخضروات، ومثل هذه الأحواض، أو الجنائن يمكن أن نجدها في سقطرى، وفيها يزرعون الطماط والقرعيات والبصل والبقول، ولكن بكميات قليلة جدًا، ولكن الجنينة بالأصح زينة للبيت، فهي بمثابة حوض زهور أكثر مما هي عون للأسرة. لدى طنوف ثلاثة أولاد، الطفل الأصغر في السابعة والثاني في التاسعة والأكبر في الحادية عشر من العمر، وهم كذلك عراة إلى الخصر، ولكن عوضًا عن الربطات الخيشية، فإنهم يتأزرون «فوطة» حضرمية أصلية، هي تنورة رجالية تربط بشدة من الأعلى بحزام عريض. وتعد «الفوطة» اللباس الرجالي الرئيس في الجنوب العربي وكذلك في عدد من مناطق شرق إفريقيا وجنوب شرق آسيا.

يساعد الأطفال طنوف في رعي الأبقار وحلابتها، وهي أبقار شقراء منقطة بالأسود والأبيض، قصيرة القامة وهزيلة البنية، ومع ذلك فلها طبع عدواني، وفي المرعى هجمت علينا على الفور وسعت جاهدة لنطحنا.



يذبح عامر البهيمة بسرعة ويفصلها ثم يستخرج الكبدة الملطخة بالدم ويعطي لكل منا قطعة، وأنا الضيف في المقدمة، ومن كل بد يأكلون الكبدة نيئة ليس فقط هنا، ولكن عند البدو في الوطن العربي وهي أشهر طعام الضيافة.

وحتى يجهز الغداء الذي دعينا إليه فإن طنوف يحلب الأبقار، لأن الوقت هنا ثمين، والأطفال من جانبهم يخضون السمن بطريقة محكمة، حيث يخفقون قربة من جلد الماعز مملوءة باللبن على حجر. والحليب هو المادة الرئيسة لغذاء الجبليين، ولقد نما أولاد طنوف على الحليب والتمور، أما اللحوم والأسماك فيأكلونها عدة مرات في الحياة فقط، وقبل عام مضى تذوقوا الرز لأول مرة.

الجبليون ليسوا فقط مَشَّائِين ممتازين، ولكنهم أيضًا قفازون مهرة، ويحب الشباب التسابق في الوثب العالي، وهم يقفزون إما من حجر إلى حجر، وإما ثلاث قفزات متتابعة في كلا الرجلين، على غرار الوثب الثلاثي الرياضي، إلّا أن الأرجل تنضغط معًا، ومثل هذا القفز صعب جدًا للغاية.

سألت أولاد طنوف، هل يستطيعون القفز؟، بالتأكيد! وبكل سرور انتظم الأطفال في صف وأخذوا يقفزون كالأرانب ثلاث مرات، وكسب الجولة عيسى، وقست المسافة التي قفزها خلال القفزات الثلاث فكانت بحدود اثني عشر مترًا، من الدهشة نطقطق بألسنتنا، والطفل المُشَجَّع، وعمره تسع سنوات فقط، يتسلق الصخرة ليعرض لنا فنه ومهارته مرة أخرى، أنه يريد القفز إلى صخرة أخرى حادة وغير مستوية تبعد عن الأولي بثلاثة أمتار. أعددت الكاميرا لالتقاط صورة، لكنني لاحظت نظرات الأب المحذرة القاسية:



- لا ضرورة للتصوير -مسكني عامر من أكمامي وواصل قوله- إذا وقع عيسى فإنه سيرتض بشدة، وعندها سيظن والده أن عينيك أصابته بالسوء، والجبليون شعب حار.

ولسبب ما أتذكر كيف رمى أحد أقرباء عامر بسكينته البسيطة بدقة بالغة حتى أن اليد أسدلت من غير وعي عن الكاميرا، أما الطفل فيصعد بمهارة إلى الأعلى ويهبط بسلام، ويبقى أن تحسده على صلابة أقدامه التي يسقط بها بقوة على الأحجار الحادة عديمة الاستواء، والتي أحس بوخزها حتى من خلال النعل المطاطي للحذاء الرياضي.

لدى الابن الأكبر في جميع صدره وفي الجزء الأيمن من الرأس ندوب كبيرة، إنها آثار الكي، العلاج الشعبي الذي انتشر في زمن ما في كل الوطن العربي، وحتى الآن ما زال سائدًا في الأرياف النائية في مصر وشمال إفريقيا والجزيرة العربية، وعلى ما يبدو أنه حين كان صغيرًا قد أصيب بالتهاب الرئتين وربما أيضًا التدرن الرئوي، السل، الذي يكاد نصف السكان هنا مصابين به. يحمي الطبيب الشعبي (الحكيم) سيخًا معدنيًا أو سكينًا على النار إلى حد الاحمرار، ويطبقه عدة مرات ناحية المكان المريض نفسه، وفي الظروف غير الصحية للحياة في سقطرى فإن الحروق الخفيفة تلتهب وتنتقل العدوى من خلالها. ومع ذلك فإن الصدمة الشديدة المؤلمة يمكن أن (تطرد) في بعض الأحيان المرض الأوَّلي. ويلقى البعض حتفهم ويشفى آخرون. وبالكيِّ يعالجون كل الأمراض، ومن النادر مقابلة إنسان في الجزيرة بدون آثار شديدة للحديد المحمي.

يعد اللبن ومشتقاته أساس غذاء الجبليين، وأكثر منتجات الألبان قيمة هو (حمئي) أي السمن بالعربية. ويحضر هذا السمن البقري بطريقة محلية، ويُثمَّن عاليًا في الساحل وحتى خارج حدود سقطرى. و(حمئي) سائل أصفر مكدر إلى حد ما، قريب في تركيبه من السمن العربي، ويمخض الجبليون السمن بطريقة بدائية، تتطلب كثيرًا من الجهد وهي واحدة من أهم أنواع العمل المنزلي. بعد الحلابة يصبون اللبن في قِرَب من جلد الماعز، وفيها أيضًا يخضون السمن، ومن أجل ذلك يخفقون القربة عدة ساعات على حجر (في الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية يخضون السمن كذلك في قربة، ولكنهم يعلقونها على حبل).

الشيء الآخر الذي لا يستهان به في اقتصاد سقطرى غير المتطور هو إنتاج عصارة الصبر، حيث يقوم الجبليون بقطع الأوراق القديمة الغليظة لهذه الأشجار التي تجدها في كل مكان في الجزيرة، ويجمعونها في وسط جلد ماعز، ويحفرون حفرة في الأرض، ويكدسون في الأعلى كميات جديدة وتحت ثقلها تبدأ المجموعات التحتية إفراز العصارة التي تسيل على الجلد، ثم يصبون العصارة في قربة ويجففونها وفيما بعد يبيعون المسحوق الذي تم الحصول عليه. ويذهب جزء من هذه البضاعة إلى الخارج حيث يستخدم كوسيلة مسهلة وموقفة للدم ومطهرة ومبيدة للجراثيم، ويستخدم الصبر القوي المجفف بشكل خاص كدواء مسهل في الهند.

بالطبع توجد الآن في الدول المتطورة أدوية عصرية وفعالة بما فيه الكفاية، ولم تعد هناك ضرورة للعلاج بهذه العصارة.

وعلى الأرجح فعدا هذه البضائع والمسك المستخرج من غدد «القطط الوحشية» وكذلك صمغ شجرة «دم الأخوين» فإن السقطريين لا ينتجون شيئًا للبيع.

من البديهي أن تحضير السمن وجمع هذه المواد لا يستغرق كل وقت البدوي. فالحياة بذاتها في الاقتصاد البدائي، تعد كفاحًا مستمرًا من أجل البقاء، وإذا كان النشاط الاقتصادي للجبليين، إلى حد معين، واضحًا وجليًا للمراقب، فإن ما يحير الكثيرين هو الانعدام الكامل لأية حرف أو مُتع أخرى لديهم، كتلك التي نجدها لدى الآخرين، بما في ذلك الشعوب المتخلفة. لا يدخن جبليو حَجْهَر إلّا قليلًا، ولا يتعاطون الشاي والقهوة، ولا يعرفون تقريبًا الأدوات الموسيقية، وقليلًا ما يغنون، ولا تنتشر هنا أية ألعاب للتسلية على وجه التقريب، والرقص نادر، ولا أحد يرسم أو ينقش على الأشجار، ولا ينتجون أية آثار فنية أو حرفية. هل يمكن القول إن هؤلاء الجبليين في الجزيرة قد بقوا عمليًا عند مستوى العصر الحجري، لا يعرفون الصناعات الفخارية ولا صناعة المعدن ولا الزراعة ولا الفنون الملاحية؟

توصلت بعثة إكسفورد على وجه الخصوص إلى هذا الاستنتاج، ولكن يبدو لي أنه ينبغي انتظار الإجابة الشافية.

لم يتيسر حتى الآن لأحد من الأجانب إجادة اللغة السقطرية، ويصعب على الأوروبيين النطق في هذه اللغة، بما في ذلك ما يسمى الأحرف الساكنة أو الجانبية. فعند لفظ الأصوات تُغلق الفتحة الصوتية بين الأسنان باللسان، ويمر الهواء من خلال الجهتين اليمنى واليسرى في الفتحة بين الأسنان والخد،

وتصعب أيضًا الأصوات الحلقية وغيرها، وحديث السقطريين سريع ومبهم، عدا ذلك فإن اللغة تمتلك عدة لهجات فرعية، وبشكل خاص، تختلف بشدة فيما بينها لهجة الجبليين ولهجة سكان المناطق الساحلية.

تكدست لدى كثير من الرحالة، الذين درسوا الجزيرة، تصورات غير صحيحة عن الفلكلور السقطري واللغة والعادات، بسبب كتمان وتحفظ السقطريين وعدم رغبتهم في اطِّلاع الآخرين على أسرار لغتهم، ولكن حتى تلك الكتابات القليلة التي تمكنت من تسجيلها في الجزيرة، وكذا من خلال لقاءاتي مع السقطريين في عدن في الأعوام ١٩٧٢-١٩٧٥م، تبين أن في اللغة السقطرية أشكالًا كافية للتعبير عن مختلف المشاعر، ويوجد في حديث سكان سقطرى هزل وفكاهة أصلية، وحديثهم طلق من غير تكلف، وهو مليء بالمقارنات المجازية واستعارات وغير ذلك من أدوات التعبير. ويستخدم السقطريون غالبًا صورًا وأمثالًا واستعارات مفهومة لهم وحدهم (وفي أحيان كثيرة مفهومة فقط لمحيط ضيق من أبناء القبيلة)، ومن كلام أحمد تيسر لي تدوين عدة أشعار رباعية، لم يكن باستطاعتي لوحدي فك رموزها أبدًا، وهاكم رباعيتان متبادلتان بين رجل متزوج فتى، يحاول إغراء فتاة أعجبته، الفتاة من جهتها توبخ بجدارة شريكها في الشعر سيء الحظ.

هذا هو يقول للفتاة:

أجرنهي لا يمكن أن يشبع
إلاّ بعشائين اثنين
وإذا ما في بطنه مغص
فعشر سمكات

والطريف أن السقطريين حينما يخاطبون الفتيات يسمون أنفسهم باسم (أجرنهي) ولا يقولون (أنا)، وربما أن مثل هذا الحديث المكشوف مع الفتاة غير ممكن في أية بلاد إسلامية، ومع ذلك فسقطرى تقدم مثلًا مدهشًا في الجمع بين نزعة المحافظة على القديم والاستقلالية والكبت التام للمرأة وإلى جانب ذلك موقعها الرئيس في الأسرة.

إن الشاب اليافع يقول للفتاة التي أعجبته أنه لا تكفيه امرأة واحدة وإنما يلزمه «عشاءان» أي امرأتان، وإلاّ فإن «بطنه» لا تشبع. وتجيب عليه الفتاة:

إنك لن تقطع هنا رأس الخروف

ولن تفلح هنا

إذا لم تشبع في بيتك

ولم تجن ثمار نخيلك

إن هذا هو اعتراض تهكمي ساخر وحازم على مكائد زير النساء، ولكن فهم هذه التلميحات من إمكانية السكان المحليين فقط.

وهذه هي رباعية يحاول سكان القرية من خلالها تأنيب اللص الصغير من قبيلتهم:

يا للعار للرأس الأسود الكبير

مع الشعر المتموج

يطل الصباح وتغرب الشمس

وأنت لا تزال حبيس غرفة صغيرة



إن الرأس الكبيرة مع الشعر الأسود الكثيف هي علامة وسامة الشباب، وهو كما يبدو متابع للموضة، أي أن شعره يتدلى بتموجات وكأنه امرأة، ولكن طالما أنه لص طويل اليد فإنه يجب عليه الاختفاء غالبًا في مغارة صغيرة حتى لا يجده أصحاب القرية التي يهابها.

كما هي هامة أيضًا إحدى الحكايات ذات المغزى، دونتها بعثة إكسفورد من كلام سكان الجزيرة:

«- ياهو!- قال الجمل للعصفورة التي مرت في الطريق.

- ياهو!- أجابت العصفورة الصغيرة.

- يا له من مطر غزير هطل -قال الجمل- إن هذا شيء حسن فبعد المطر ستخضر الحسك وتغدو لذيذة، وكيف حالك أنت؟

-جيدة- ردت العصفورة الصغيرة، رغم أنها تشكو مرضًا خطيرًا في بطنها وكانت حزينة لأن الطبيب سافر إلى عدن - جيدة، ولكنني خائفة أن يكون الله قد غضب عليَّ فأرسل لي المرض، واعتقد أنني سأتعالج غدًا في عدن.

-الله قادر على كل شيء- قال الجمل ومضى في سبيله. سار الجمل متعبًا في الوادي الجاف طوال الصباح، وصعدت الشمس عاليًا وغدت حارة جدًا، وهو هكذا لم يجد ولا حسكة واحدة، رغم أن السماء قد أنزلت مطرًا غزيرًا في الليلة السابقة، وعندها استلقى تحت صخرة وأخذ يحلم بالنوق وبالحسك.

وعندما اعتدلت الحرارة سار الجمل من جديد في طريقه، لم تمض ساعة إلّا وكان قد رأى في وسط الصحراء أشواك الجمل، وحينما اقترب منها تبين أن العصفورة الصغيرة قد بنت لنفسها عشًا على أغصانها.

- ياهو!- قالت العصفورة الصغيرة- إنك لا تستطيع أن تأكل هذه الشجرة.
- أنا جوعان -اعترض الجمل- وعلى مسافة مائة ميل من حولنا لا توجد ولا شجرة واحدة من أية مكان.
-خمسة شلنات- قالت العصفورة الصغيرة. واشترى الجمل الشجيرة والتهمها.

وبهذه النقود استطاعت العصفورة أن تتجه إلى عدن في زورق كبير جميل، وهو ما أنقذها من عناء الطيران إلى هناك. كانت هذه عصفورة كبيرة ذكية لأن تلك الشجيرة تعود ملكيتها لابن عمها الذي كان بعيدًا في مسقط».

يمكن أن تفيد كثيرًا في دراسة تاريخ وإثنوغرافيا اليمن، أسماء القبائل السقطرية التي ما زالت باقية منذ الأزمة القديمة. وغالبًا ما تنتهي أسماء القبائل بنهاية (هو) التي تتبع نهاية الجمع، على سبيل المثال الشخص الذي ينتمي إلى قبيلة مرافقنا عامر، يلقب بـــ«دعرهي» والقبيلة نفسها «دعرهو»، وها هي أسماء بعض القبائل الجبلية:

اسمهو، شعرهو، حرمقهو، عربهو، حمرهو، قعرهو، العميريو، قشن.. الخ.

ولا تقل أهمية للبحث والتحليل أسماء السقطريين. وهاكم بعض الأسماء الرجالية:

طنوف، عبلس، تمنك، فيدد، نيحح، فنطس، صيل.. الخ.

انتهت رحلتنا في جبال حَجْهَر في دعرهو، موطن عامر، حيث وصلناها مساءً متأخرين بعد يوم مضنٍ في الطريق.



استقبلنا هنا سعيد، أحد شيوخ القبيلة، وبعد التحايا الطويلة وملامسة الأنوف والعناق يقدمني عامر ومرافقينا لسعيد، ثم تبدأ الأسئلة لأن عامر منذ مدة طويلة لم يكن بين قبيلته:

- هيا، كيف، هل حصلتم على محاصيل التمور الآن؟
- الحمد لله، يوجد القليل، يجيب العجوز.
- وهل نزل المطر؟
- لله الحمد وقع مطر.
- وهل نبت الآن الزاد (أعشاب تقتات عليها الماشية -المؤلف)
- إذا قدر الله فستجد الأبقار ما تأكله غدًا، يقول سعيد.
- وهل مواليد الماعز جيدة؟ يواصل السؤال عامر.
- بين المواليد فقط مواعز قليلة.
- للأسف -يستطرد عامر- يعني أن عدد صغار العنزات لم يزداد؟ وهل نفقت أغنام أو مواعز؟
- لله الحمد، في هذا العام نفقت فقط اثنتان.

ياه، ياه، كأنما يطقطق العجوز، وهذا تعبير مختصر لـ «يا محمد!» وهو يتوسل باسم رسول الإسلام ليتوقف نفق المواشي عند حدود الغنمتين، لأنه عندما يقال إن ما نفق إلّا القليل يمكن أن تصاب بالعين! والنبي محمد(ص) يساعد في تجنب الإصابة في العين.

كنت أعرف أنه إذا ما كانت جائحة المواشي كثيرة (لأية سبب) فإن الجبليين يذبحون عدة خرفان ومواعز كقربان لله، ولكن هذا العام كان موفقًا.



- يعني أن المطر نزل؟ أعاد السؤال مرافقنا.

- إن شاء الله، وأن لا ينقطع حتى الشتاء نفسه.

- وكيف التمور، هل نضجت؟

- لله الحمد.

- وكم قد جمعتم؟

- يوجد لدينا خمس قِرَب، الله كريم، أحسن من لا شيء.

- وكيف الجيران، هل وقع عندهم مطر وهل جنوا التمور؟

- الخير مع الجميع، الحمد لله -يؤكد سعيد.

أتنفس أنا أيضًا براحة، وكان من حسن الحظ أننا وصلنا إلى القرية في موسم الخير ولم نسلب مضيفينا آخر قطعة خبز.

يجتمع الأقارب وأبناء قبيلة عامر ويصطحبوننا إلى المرج حيث نجلس قرب شعلة نار تضرم ألسنتها رغم رذاذ المطر الخفيف، وهنا يذبحون ماعزين احتفاءً بقدومنا.

بعد قطع رقبة الماعز يخلعون عنه الجلد. إن سلخ الحيوان، فنٌ كامل، ويجيد الجبليون هذا الفن بكامل الاتقان، إذ يفصلون الجلد عن الجسم بسرعة خلال بضع دقائق، أما جلد الأبقار فيخلعونه بطريقة تختلف عن الماعز والضأن، وبعد دباغة جلود الحيوانات الكبيرة يتم استخدامها بمثابة مفرش، ومن جلد الخروف أو الماعز يصنعون القربة، ولذلك فإنهم يخلعون الجلد كما تخلع «الجوارب»، ولتسمية العملية التي بمساعدتها يخلعون جلد



البقر أو الماعز توجد في اللغة السقطرية أفعال مختلفة (جزهل) وتعني «خلع الجلد عن البقرة»، و(دحش) «خلع جلد الخروف أو الماعز».

بالقرب منا تتدفأ بجانب النار عدة جمال تعود ملكيتها لأبناء قبيلة عامر، والجمل السقطري حيوان عجيب يتكيف بصورة رائعة على صعوبات طبيعة موقع سطح الأرض والطقس، وهو قوي، إلّا أنه ليس صبورًا مثل نظيره العربي، وفي الطقس الحار والجاف يتم سقيه كل يوم، ومع ذلك فهو راسخ القدم على غرار الماعز الجبلي، ويستطيع بدون عناء صعود الجبال على ارتفاع يصل إلى ألف متر، ولكن في التربة الموحلة والمبللة فإن الجمل يفقد ثباته المعتاد، لأن باطن أقدامه العريضة تطأ في الوحل وعلى الصخور المبللة الملساء السطح بصورة رديئة، وفي المطر الشديد فإن الجمل قد ينزلق ويهوى أو يذهب في مهب الريح.

إن الضأن والماعز والجمال، حيوانات يستخدمها الإنسان هنا لمختلف الأغراض، فالضأن والماعز تعطي اللبن واللحم والصوف والجلود، فمنها إذن يعدون المأكل والملبس، ولا غرابة أن يطلق الجبليون في أحيان كثيرة أسماء خاصة على النعجات والعنزات، ولاسيما الولودة. ويمكن ملاحظة كيف ينادي الجبليون حيواناتهم بتعبير واضح مطقطقين بألسنتهم، وفي الوقت ذاته يطلقون أصوات مغرغرة.

ولا يقل عن ذلك استخدام الجمل للأغراض المتعددة، ولا ينافسه هنا في جبال سقطرى سوى الحمار فقط، ويهاب أهل الجزيرة الإفراط في حمولة الجمل أكثر من المعدل، أو إنهاكه للغاية، ومجمل عفش الحمولة لا يتجاوز عادة ١١٠-١٢٠كغم، رغم أن الحيوان قادر أن يحمل أكثر من ذلك، وتعد



الناقة أكثر تحملًا من الجمل الذكر. وتمرين القعود على نقل الأحمال يبدأ من العام الثالث ولكن تحميله بكامل قواه يبدأ فقط من العام الخامس أو السادس، ويعمر الجمل طويلًا، وفي الظروف الجبلية يمكن أن يعيش أربعين إلى خمسين عامًا. ومع ذلك فإن عمله ذا القيمة الكاملة يظل حتى الخامسة والثلاثين وربما أقل من ذلك.

قرية دعرهو لا تشابه القرى التي رأيناها في المناطق الجبلية الأخرى، الكهوف والبيوت المشيدة من الصخور، تتباعد بعضها عن بعض بمسافة كبيرة، ولذلك لا تتبين تقريبًا ويصعب تحديد حجمها، ولدى كل أسرة مرعاها المحدد، ولكن الناس غالبًا يساعدون بعضهم البعض. والفارق في مستوى المعيشة هنا ليس كبيرًا، وغير ملحوظ في الواقع، رغم أن بعض الأسر تمتلك من ثلاثمائة إلى أربعمائة من الضأن والماعز.

إن بدو سقطرى لا يعرفون الساعات، وهم يقيسون الوقت بطول ظل الإنسان في هذا الوقت أو ذاك من اليوم. هكذا، فهم يقولون: «أنا صليت حين كان الظل أربعة أقدام، خمسة أقدام»..الخ، والطريف أن تقسيم اليوم أكثر تفصيلًا عما هو لدى كثير من الشعوب الأخرى. يبدأ اليوم مع (مصيبحين) أي الصباح، وهي مدة معينة من الوقت، تقريبًا من الساعة الرابعة وحتى السادسة صباحًا مع الشروق، بعد ذلك يتبع (الصبح) أي الصباح. الوقت من التاسعة والنصف صباحًا وحتى منتصف النهار يسمى (مثوقهر) بعدها يأتي الظهر، ومن منتصف النهار وحتى الساعة الرابعة أو الخامسة يسمى العصر، ثم يأتي المغرب، وفي أثنائه يحل الظلام بالتدريج، وما إن يتكثف الظلام حتى يبدأ العشاء، مع الساعة السابعة والنصف مساءً ويستمر حتى يسود الظلام الحالك

بالكامل، وحينها يحل الليل الذي يسميه السقطريون (حتا) ومنتصف الليل يعرف عندهم (نص حتا).

يومان من الضيافة لدى الجبليين في دعرهو يمران بسرعة غير ملحوظة، وأنا أُدوِّن اللغة السقطرية التي سيكون عليَّ التعامل معها كثيرًا فيما بعد، وأتحدث مع السكان المحليين وأسألهم عن حياتهم وعن اقتصادهم وأتعرف على طقوسهم وتقاليدهم. ولا شك أن كهوف وبيوت أهل دعرهو المكونة من الحجارة، تبدو خالية تقريبًا، وكل أثاث سكان هذا المكان يتكون من القدور الفخارية وجلود الماعز والضأن وكذلك الألحفة النسيجية.

حَلَّ يوم العودة إلى حديبو، توادعت مع أبناء قبيلة عامر، أما هو فسيعود معي ومن جديد يترك زوجته وأولاده الخمسة، وباعتزاز يعرض عامر لأقربائه الهدايا المستلمة: ترمس وعلبة كيلو جرام من الشاي.

أريد الذهاب إلى هناك مرة أخرى أيضًا، للتعرف أفضل على حياة القبائل المحلية، فلم يتيسر لي أن أعرف طبيعة مؤسساتهم القبلية، ووظائف الشيخ وروابط القرابة وغيرها الكثير من المجالات الواسعة للبحث.

في الطريق أوضح لي عامر أن «المقدم» أي زعيم القبيلة يقوم بمهام متواضعة لدى الجبليين فهو يحل المنازعات والمشاحنات بين أبناء القبيلة في حالات الجفاف وغيرها من الكوارث الأخرى وفي الحياة الأسرية، وهو يجسد تراث ووصايا الأجداد، ويعد أعقل رجل في القبيلة، وإذا لم يحسن القيام بدوره فإن القبيلة تختار بدلًا عنه شخصًا آخر. لكن كيف يتم ذلك، فإن عامر لم يتمكن من إيضاحه أو أنه لا يريد ذلك، لأننا لسنا لوحدنا.

إن الهبوط، على الأرجح، أصعب من الصعود في الشعاب التي تجري فيها الجداول الجبلية الصافية الرقراقة. أجلس على صخرة وأتأمل طويلًا في قمم حَجْهَر اللازوردية- القمحية اللون، والمكسوة بغطاء من السحب الرمادية، وأقول في نفسي: «إلى اللقاء يا حَجْهَر، سنلتقي من كل بد».



الفصل العاشر

بداية الطريق الجديد

حتى العام ١٩٧٣م لم تتغير الحياة في سقطرى تقريبًا، ولإعادة البناء لا بد من وسائل كثيرة وكوادر، ولدى جمهورية اليمن الديمقراطية الفتية بما فيه الكفاية من الهموم والأشغال. قال لي محافظ الجزيرة: «عندما وصلنا إلى الجزيرة لأول مرة اضطررنا أن ننتقل من المطار إلى حديبو مشيًا على الأقدام أكثر من ثلاث ساعات، لأنه لم يكن يوجد في الجزيرة حتى طريق واحد للسيارات، وحين ذهبنا أول مرة من حديبو إلى رأس مومي- في الطريق الشرقي للجزيرة (هذه الطريق أخذت منا ساعات كثيرة) وحين صعدنا إلى الجبال ما إن رآنا السكان المحليون حتى هربوا منا، وبقيت فقط امرأة، كان معها بين يديها طفل مريض، ولذلك لم تستطع الهروب مع الجميع. أخذنا نوضح لها أن لا ضرورة للخوف منا، وأننا كذلك بشر مثلهم جئنا لنساعدهم، وسنقدم لهم الرز والأدوية وسنعالج طفلها، ونبني في الجزيرة الطرق، المدارس والمستشفيات، وحينها كانت المرأة أول من صدقتنا، أما الآن فإن الجبليين لا يهربون منا، بل إنهم يأتون إلينا بأنفسهم بهمومهم ومشاكلهم».

أُنشئتْ في الجزيرة أولى القاعات التجريبية لإنبات المنتوجات الزراعية. هنا يجربون زراعة المانجو، البرتقال، الخضروات، البطيخ، البرسيم وغيرها



من النباتات، لاسيما في المناطق ذات الآفاق المستقبلية في قلنسية ونوجد في الساحل الجنوبي للجزيرة. قال المفتش الزراعي في الجزيرة، علي عبد الإله: «إن المزروع الآن في الجزيرة ٩٠٠ فدان فقط وأن النتائج مشجعة، ونحلم في أن تصبح جزيرتنا يومًا ما منطقة إنتاج زراعي متطورة، والشيء الرئيس الآن هو الإكثار من الآبار».

«العمل هنا صعب جدًا -يحدثني سالم علي المشرف التعليمي في الجزيرة- والبدو لا يرغبون أن يلتحق أطفالهم في المدراس، لأن الأطفال في سن السادسة أو السابعة يحلبون الماشية ويرعون البهائم ويربون الصغار، وقد اضطرت الحكومة أن تبني لأبناء البدو - الذين ليس لديهم أي تصور بعد عن المدرسة- مدارس داخلية، حيث يجتمع الأطفال من القرى النائية، وهناك يتعلمون ويأكلون مجانًا، وما زال هذا هو الدافع الرئيس الذي يقنع البدويين للموافقة على إلحاق أطفالهم في المدارس الداخلية. وحاليًا بدأت علاقة البدو بالمدرسة تتغير إلى الأفضل، وكثير منهم يرغبون في أن يحصل أبناؤهم على التعليم، وحتى الآن توجد في الجزيرة ١٤ مدرسة يعمل فيها ٣٨ مدرسًا جاءوا من عدن، وجميع المدارس بينت بالعمل الطوعي، في أثناء العطل الأسبوعية، حيث يشارك في العمل كل سكان الجزيرة وأفراد القوات المسلحة من الحامية العسكرية في الجزيرة».

إن هذه المدارس متواضعة من حيث شكلها، فهي ببساطة عنابر مشيدة من الحجارة المثبتة بالنورة، ولكن ما أن تعرف الجهد المبذول لإنجاز هذه البنايات، وحماس الناس الحريصين على نقل سكان الجزيرة من القرون الوسطى مباشرة إلى القرن العشرين؛ لا تملك إلّا أن تتعجب وتنذهل لقدرة



نشطاء الجبهة القومية الذين بدأوا في عام ١٩٧٣م بتطوير الجزيرة، وتكمن روعة المباني المدرسية في كونها بنيت جميعها بمساعدة العمل التطوعي لسكان الجزيرة، أيام العطلة الأسبوعية، وهو يسمى هنا «مبادرة» وهكذا بمساعدة «المبادرات الجماهرية» يشقون أيضًا أولى الطرق في الجزيرة.

تحدثت مع واحدة من النساء المشاركات في المبادرة هي فتحية، ذات الوجه المستدير والأسنان البيضاء والبشرة البنية، ومن حولنا تدمدم، في غيمة من الغبار، الأحجار المنزوعة من المنحدر، فسكان حديبو يستكملون شق طريق موري -حديبو. حتى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م عندما طرد المستعمرون الإنجليز وعملاؤهم من جنوب اليمن، كانت فتحية جارية للسلطان بن عفرار الذي حكم المهرة وسقطرى.

- كل أجدادي كانوا عبيدًا -تتحدث فتحية- ويُقال إن تجار العبيد جلبوهم منذ زمن بعيد من شرق إفريقيا، وأنا كنت طوال الأيام أنقل الماء من البئر وخدمة زوجات السلطان، وحين لا يكون السلطان راضٍ عنا كانوا يضربونا بالسياط، ولا يسمح بزواجنا إلّا على العبيد، وحتى هذا كان يتم غالبًا بأمر السلطان، وكان محكوم على أطفالنا البقاء عبيدًا.

من الصعب التصديق أنه قبل أكثر من سبع سنوات وجدت هنا العبودية، أن الجارية السابقة فتحية حاليًا عضوة في اللجنة النسائية في الجزيرة، وتساهم بنشاط في الحملة من أجل تحرر المرأة التي تقودها منظمة الجبهة القومية، وتشارك النساء الأخريات أيضًا في «المبادرات الجماهيرية» والمساهمة في حلقات محو الأمية والاستماع إلى محاضرات النوعية، تقول فتحية:

- إننا نريد أن يتعلم أطفالنا ويصبحون أطباء ومهندسين، ولذلك فقد بنينا في حديبو بأيدينا مدرستين.

بفضل التدابير السريعة الخاصة بتطوير الجزيرة، ابتداءً من عام ١٩٧٣م، ازدادت أعداد التلاميذ من ٢٥٠ تلميذًا عام ١٩٧٣م إلى ١٥٠٠ تلميذًا عام ١٩٧٤م.

إن اقناع البدو بإلحاق أطفالهم في المدرسة الداخلية أمر لا يتحقق بسهولة. ففي الكفاح الشاق من أجل البقاء تعد الأسرة الجبلية كل طفل يدٌ عاملة، ومحمد ابن عامر درس في المدرسة في حديبو، لكنه هرب قبل مدَّة إلى الجبال وقد سألت الطفل:

ألا تريد أن تصبح مهندسًا أو طبيبًا؟

نعم أريد ولكن كيف يمكن العيش كل الأوقات في المسكن؟ حتى يوم الجمعة لا يمكن الجري في الجبال، أنا لا أستطيع الحياة في «المدينة» - هكذا أوضح محمد.

إن الحياة في السهول، في القرية الكثيرة السكان والمملة، بالنسبة للطفل الذي اعتاد على الحياة الحرة في الجبال، مستحيلة على الإطلاق.

في القريب سيتم في الجزيرة افتتاح أول مستشفى وهو أول مبنى عصري في الجزيرة، بجانب المبنى يقف رجل عجوز حافي القدمين بعمامته الكبيرة، مستندًا على عصاه ومستغرقًا في التفكير بشيء ما، كأنما جاء من صفحات «ألف ليلة وليلة»، كانت صحة العجوز حمدينو رديئة، وهو يتخيل منذ مدة طويلة كيف سيضعونه على سرير لم يره أبدًا من قبل، ومن فوقه تعمل مروحة كهربائية تأتيه بالرطوبة المنعشة، وحتى الآن فإن الكهرباء في الجزيرة لم توجد بعد.

تبدي منظمة الجبهة القومية نشاطًا كبيرًا في كل شيء يبدأ في الجزيرة، ومؤخرًا عادت إلى الجزيرة أول مجموعة من السقطريين الذين أنهوا الدراسة في المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية في عدن. وتقف أمامهم مهام صعبة، إثارة الحماس للأفكار العصرية التقدمية بين الناس الذين انتقلوا فقط مؤخرًا إلى الحياة العصرية.

وتعطي قيادة البلد أهمية كبيرة لدراسة ثقافة السقطريين وعاداتهم ولغتهم، وفي الحقيقة أنه مع تطور الجزيرة ستختفي الكثير من عادات وتقاليد السقطريين التي تكتسب أهمية كبرى للعلم، وسيتغير نمط حياة السقطريين، ولهذا لا بد من الإسراع في عمل كهذا. يقول نائب وزير الثقافة والسياحة (ج. ي. د. ش)[1] محمد عبد القوي:

- ليس عبثًا أن تسمى سقطرى بـ «درة البحر العربي» وفي الوقت الراهن تشهد الجزيرة الكثير من التغييرات وتدخل الحضارة لأول مرة في الحياة نصف البدائية لسكان الجزيرة، وسيتم نقلهم من مرحلة التخلف إلى عصر التقدم الاجتماعي، ونعتقد أن كل الأبحاث والدراسات للجزيرة في الوقت الحاضر تمتلك أهمية خاصة لأن الحضارة الجديدة لم تطمس بعد ما له أهمية للعلم.

ولكن حكومة ج. ي. د. ش لا تعتزم المحافظة على تأخر وتخلف سقطرى خدمة للعلم، إن أهم مساعدة للسقطريين هي إيجاد السعادة الحقيقة وتحقيق الازدهار.

(١) (ج.ي.د.ش): اختصار لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (المترجم).

قال لي سكرتير اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية عبدالله باذيب، الذي ترأس خلال سنوات عديدة وزارة الثقافة والسياحة، إن قيادة البلد تعلق آمالًا كبيرة على سقطرى، ليس فقط كمنطقة اقتصادية ذات آفاق مستقبلية، ولكن أيضًا على طبيعتها التي تجذب السياح من مختلف أنحاء العالم، ويظل بناء مجمع سياحي في سقطرى مهمة حيوية للغاية بالنسبة للسكان المحليين.

تسهم مساعدة الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية الأخرى إسهامًا كبيرًا في تطور اليمن الديمقراطي، ويعمل في الجمهورية المستشاورون والجيولوجيون والبناؤون والأطباء والخبراء الزراعيون وكثير من المتخصصين، ولقد أشارت قيادة البلد أكثر من مرة إلى أهمية المساعدة التي يقدمها الاتحاد السوفيتي لتطوير الدولة الفتية.

لم تبق سقطرى خارجة عن أطار التعاون المثمر بين البلدين. ففي شق الطرقات عملت هنا الآلآت السوفيتية وتواجد الاختصاصيون السوفيت في تربية المواشي، التي يعد تطويرها مهمًا لاقتصاد البلاد، وقد شيد في الجزيرة أول مركز للطب البيطري وقريبًا سيبدأ العمل به ولن يقلق السقطريون أكثر من الأمراض التي تفتك بأغنامهم. قال محافظ الجزيرة:

- إن نتائج تجاربنا الزراعية الأولية مشجعة، وهنا يمكن أن تنمو بشكل جيد الخضروات، الذرة، المانجو، الليمون والبطيخ، ويقولون إن سكان السهول زمن البرتغاليين مارسوا الزراعة، ولكن انتقال الصيادين ومربيي الماشية السقطريين الآن إلى الأراضي لزراعتها أمر ليس سهلًا.

ومع ذلك فأنا على يقين أن هذا سيحدث، ولا يمكن إلّا الثقة بالمستقبل خاصة عند رؤية حيوية السقطريين وحماستهم، وكذا أولئك الشباب الذين جاءوا لمساعدتهم في بناء الحياة الجديدة، وكذا عند مشاهدة النجاحات الأولية للجمهورية الفتية السائرة بحزم في طريق التقدم وكنس المخلفات المشؤومة للماضي الاستعماري، ويظل على هؤلاء الناس عمل الكثير والكثير للسير في طريق التقدم، ومع ذلك فالوقت يعمل لصالحهم.

في يوم من آخر أيام تواجدي في الجزيرة شهدت افتتاح طريق حديبو - موري، الآن يمكنني السفر إلى المطار على السيارة. لقد عمل سكان حديبو والقرى المجاورة لها والعسكريون من الحامية العسكرية على شق طريق وإنجازها خلال أيام العطل الأسبوعية.

ها هي طائرتنا تأخذ في الارتفاع، وتقوم بآخر دورة لها حول موري، أنظر إلى الأسفل مودعًا أدغال التمور الخضراء في القرى الساحلية، والأماكن الرملية الصفراء الضحلة في خور حديبو، مع قمم حَجْهَر المتدثرة بالغيوم الرمادية الزرقاء.

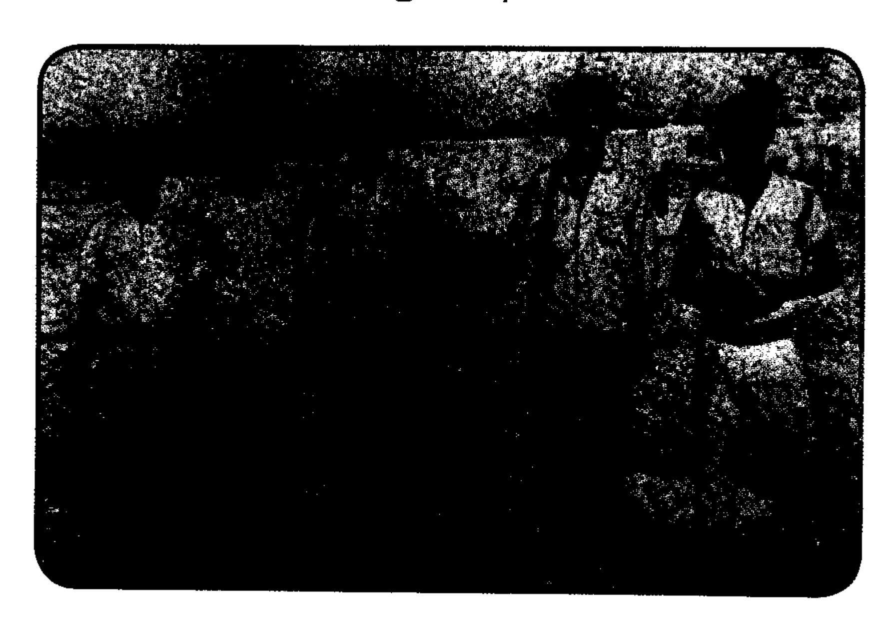

ملحق الصور

خريطة توضح المسافة بين أرخبيل سقطرى وبقية محافظات اليمن



خريطة سقطرى

إلى العمل



رجال شرطة في حديبو



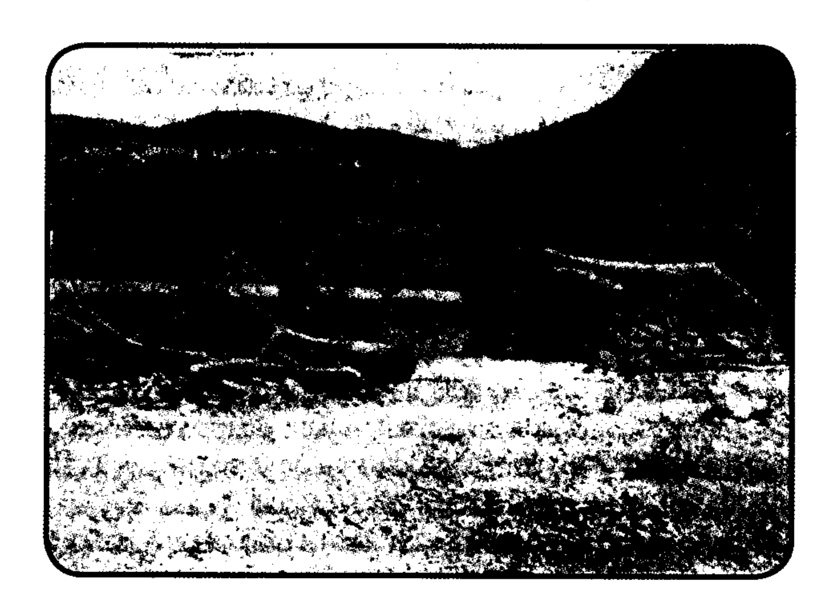
منطقة نوجد



المؤلف مع أحد الجبليين في جبال حجهر



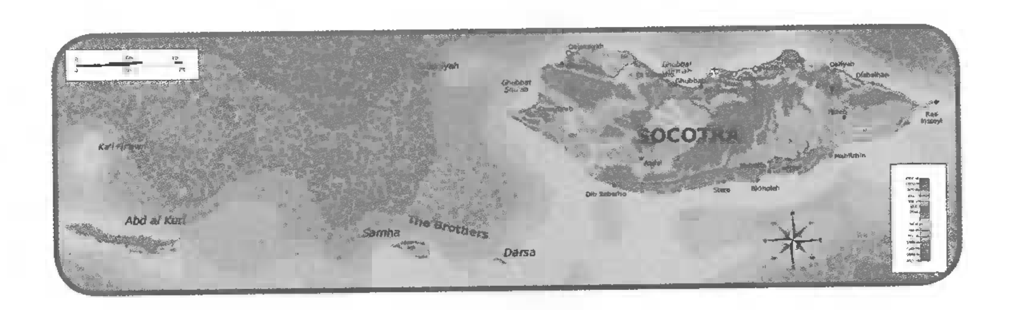
الرمسة - استراحة ليلية في حديبو



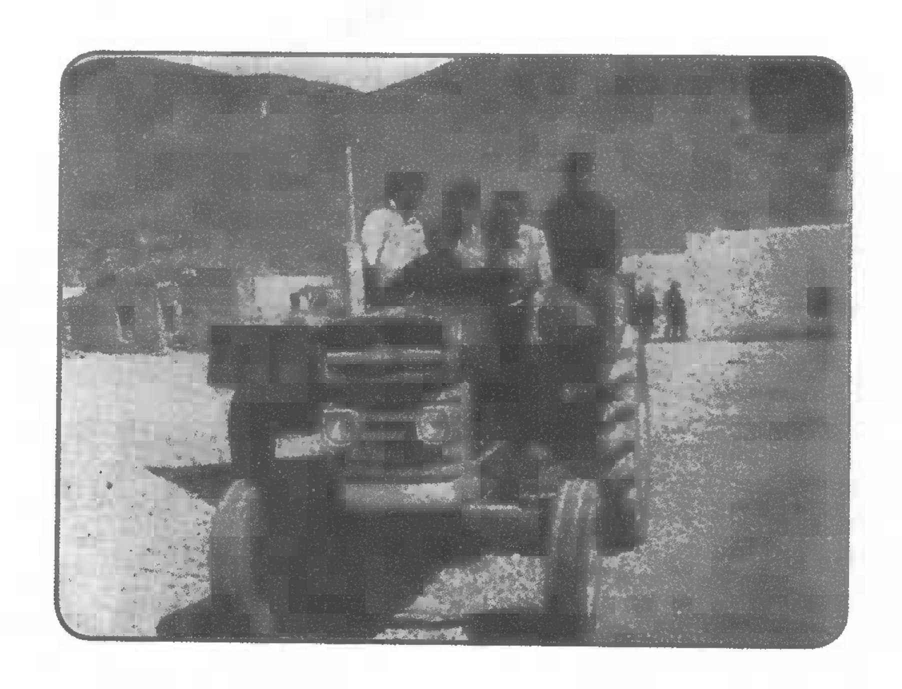
في قرية قاضب في الساحل الشمالي للجزيرة



خريطة توضح المسافة بين أرخبيل سقطرى وبقية محافظات اليمن



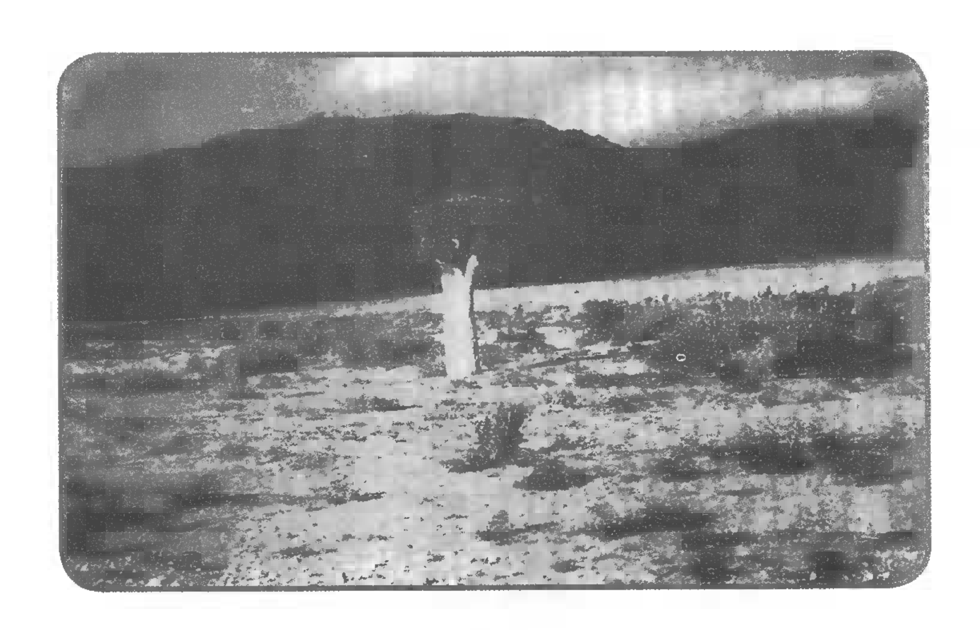
خريطة سقطرى



إلى العمل



رجال شرطة في حديبو



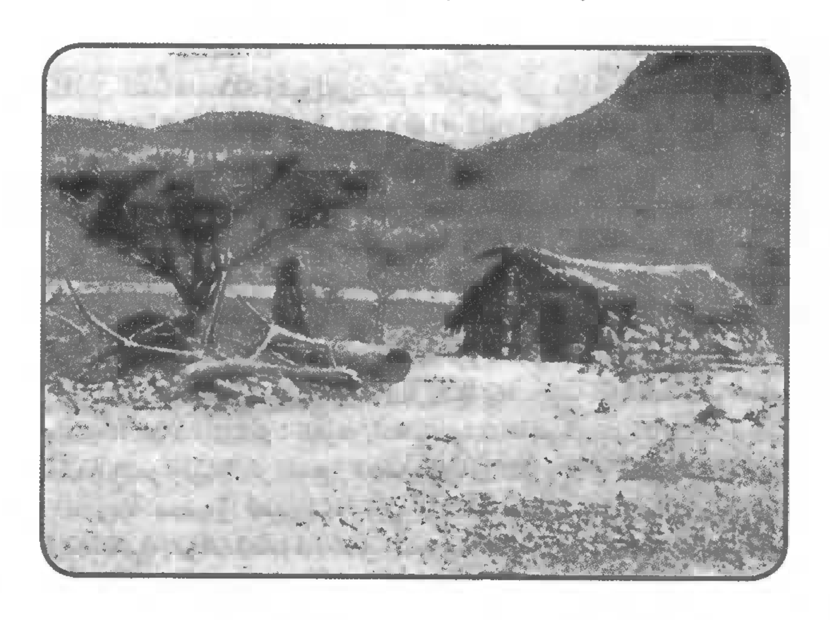
منطقة نوجد



المؤلف مع أحد الجبليين في جبال حجهر



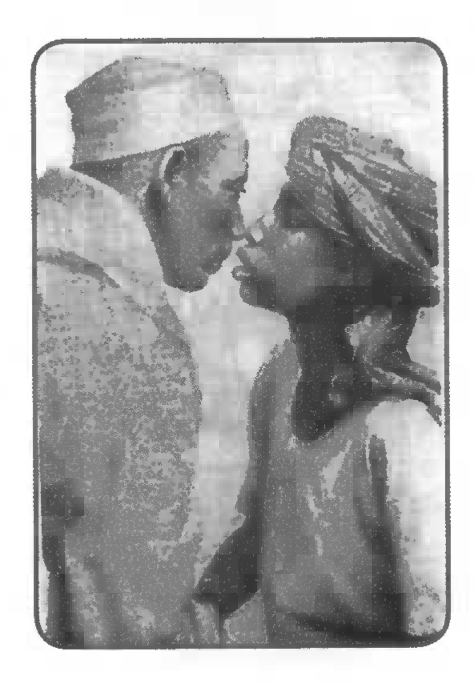
الرمسة - استراحة ليلية في حديبو



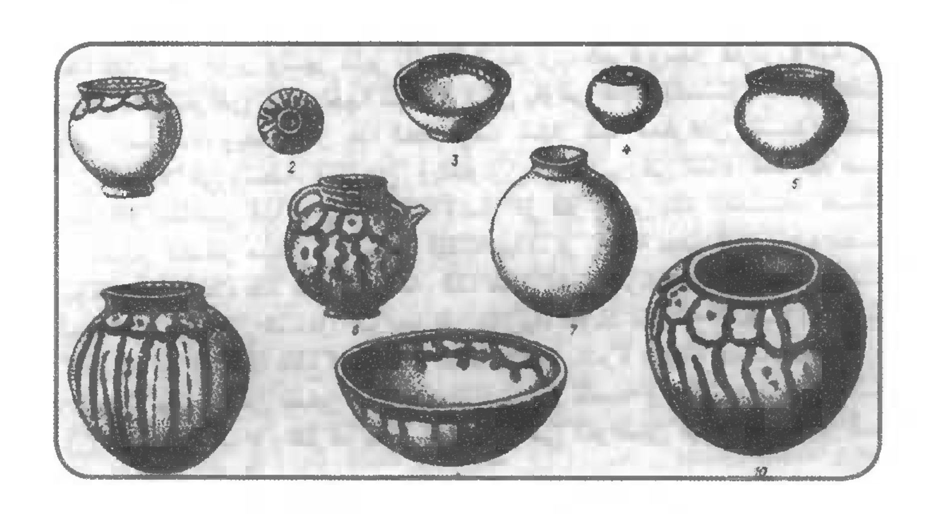
في قرية قاضب في الساحل الشمالي للجزيرة



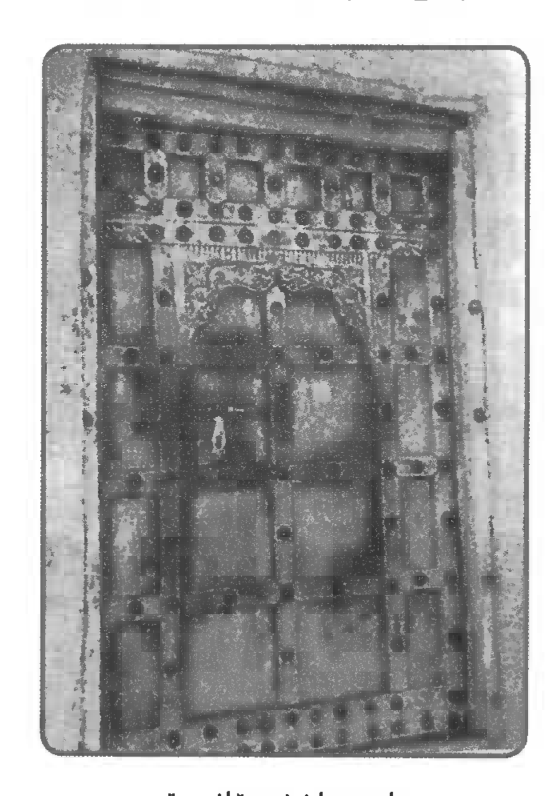
الطفلة فتحية ابنه عبدالله



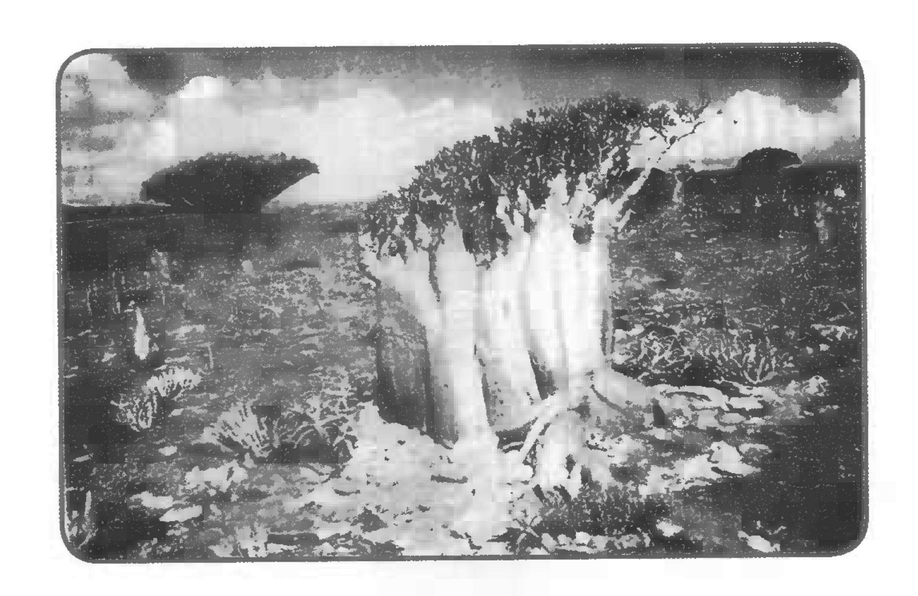
التحية السقطرية



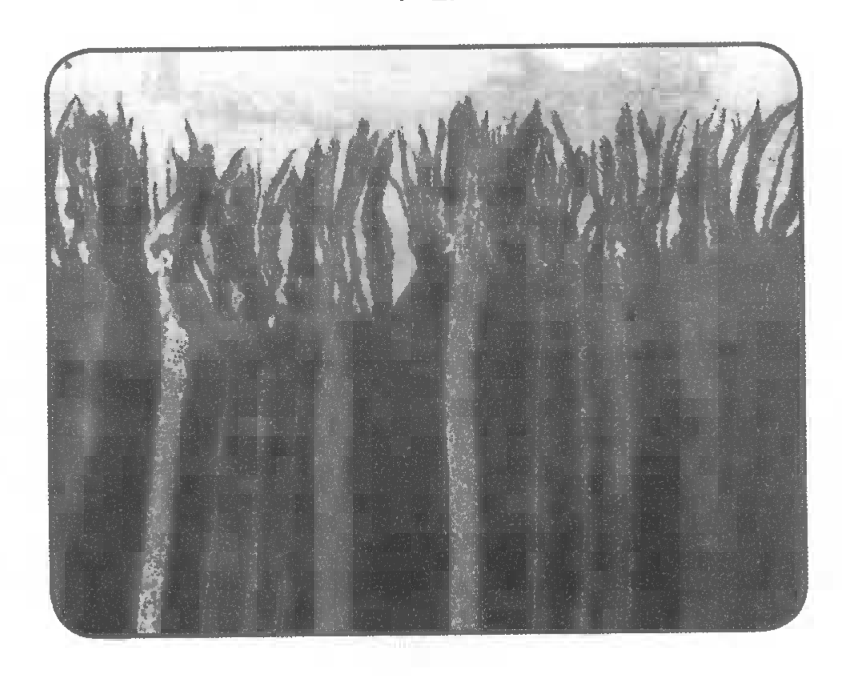
نماذج من المنتوجات الفخارية في سقطرى



باب مطرز في قلنسية



سقطرى الوسطى



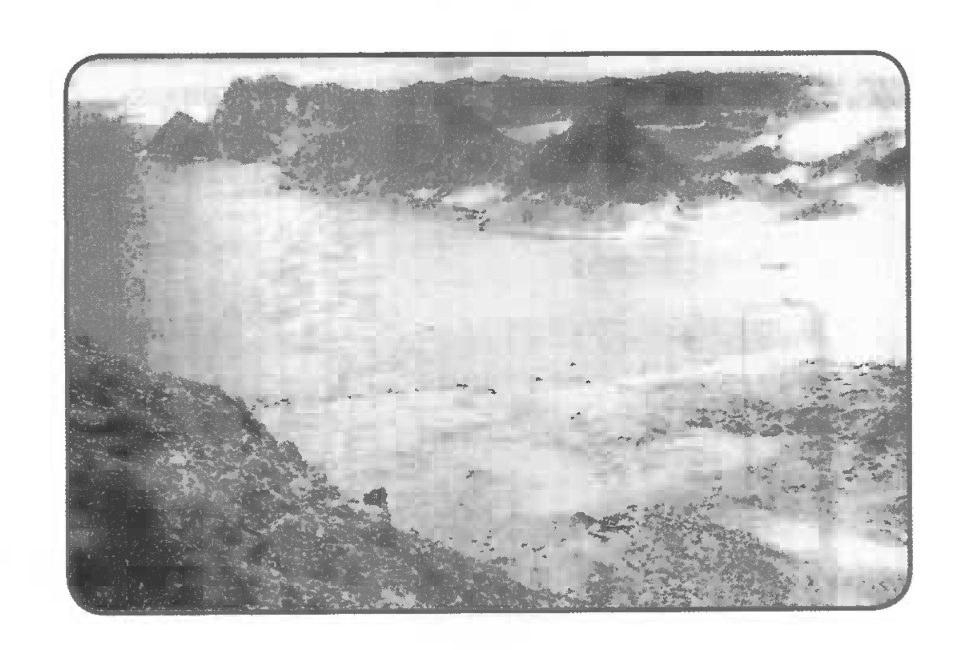
صناعة اللحاف أو الشملة السقطرية



ساحل المنطقة الغربية



جزيرة سمحة



جزيرة عبدالكوري



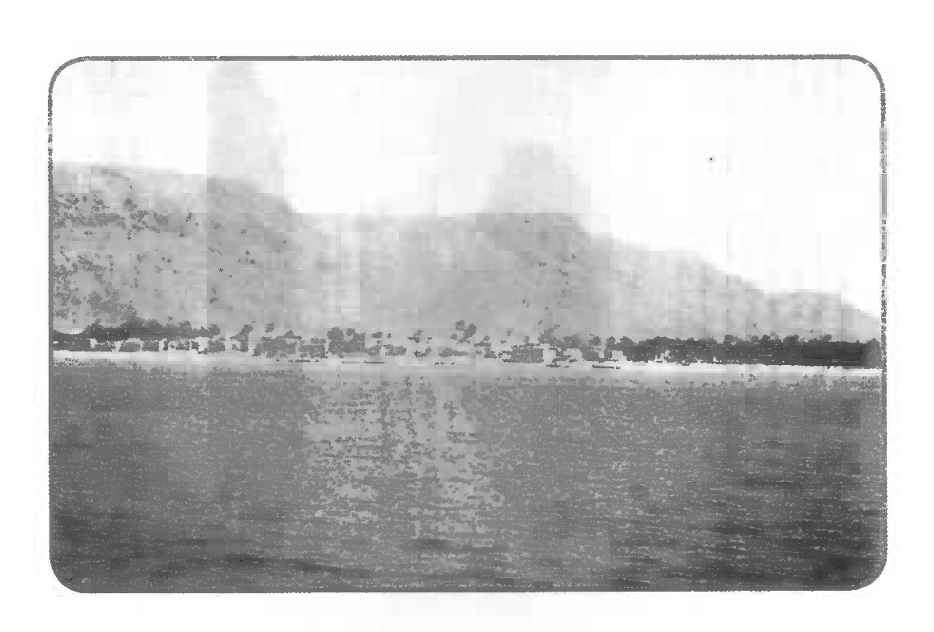
مرافقي عامر



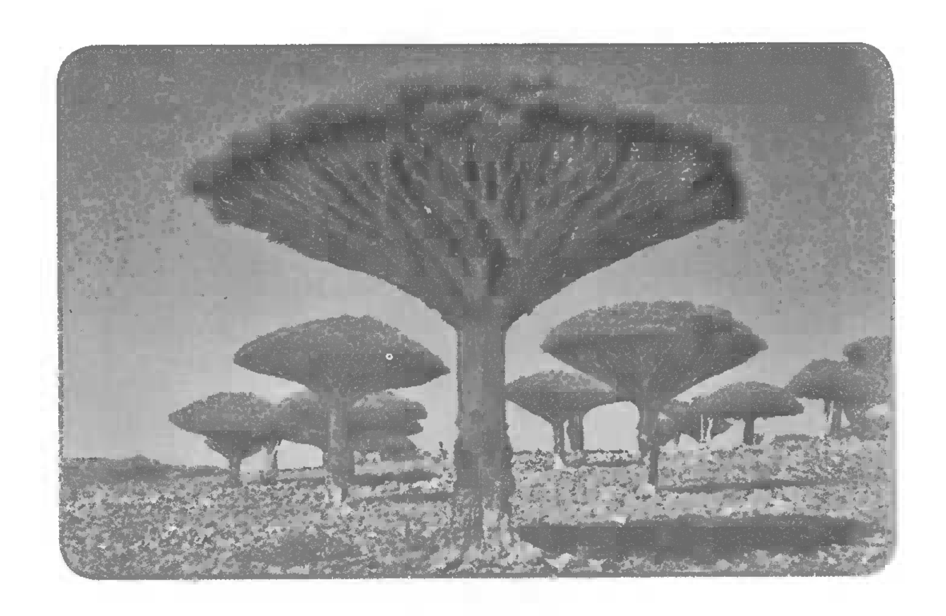
أمينة - واحدة من جميلات سقطرى



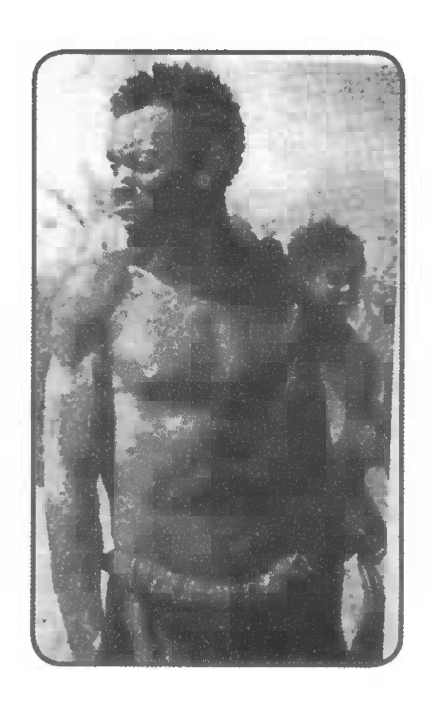
بدوية



قلنسية - مرفأ سقطرى الرئيس



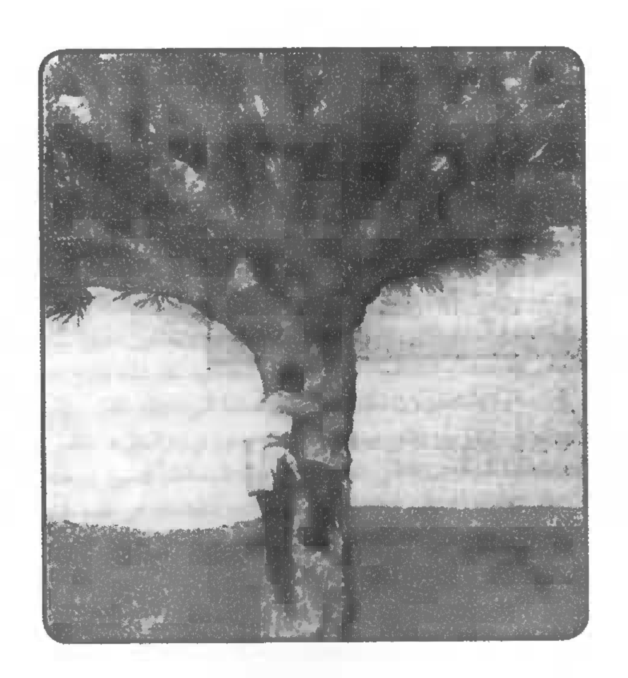
شجرة دم الأخوين



مواطن من حديبو



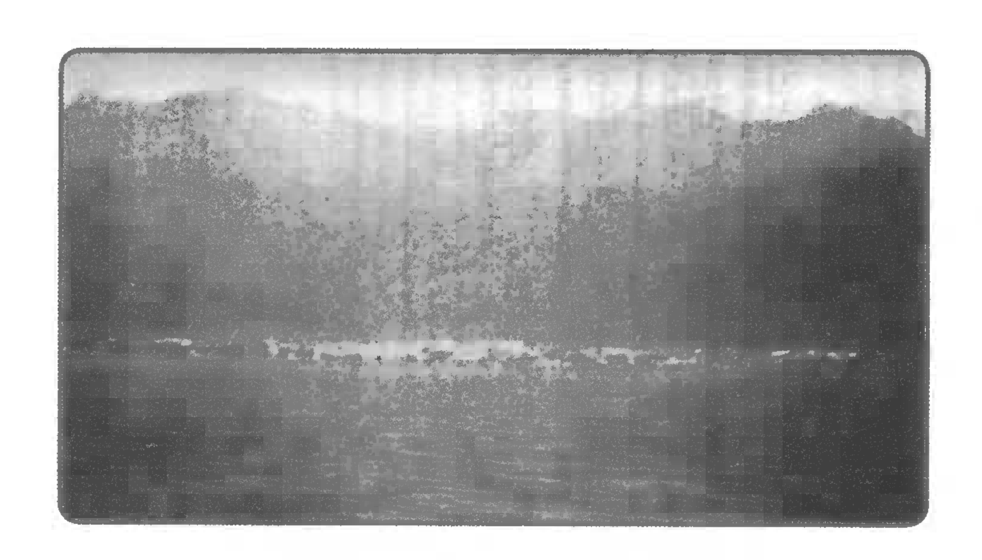
جانب من شاطئ سقطرى



من أجل الصمغ



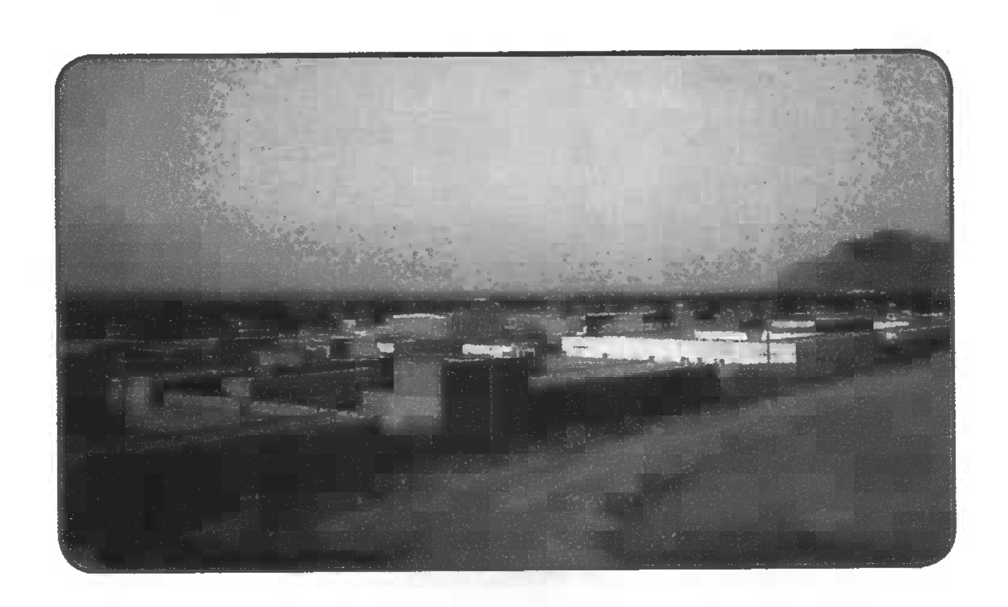
قط المسك



جانب من جزيرة سقطرى



جزيرة دَرْسة



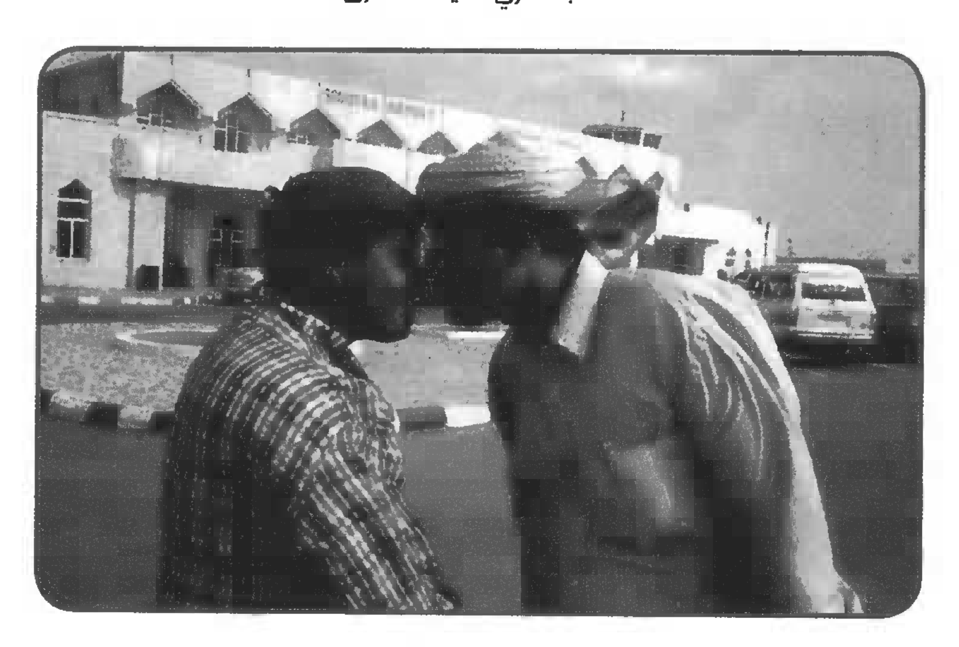
جانب من حديبو



جانب من حديبو



مسجد أثري في سقطرى



طريقة المصافحة عند السقطريين



مطار سقطرى



أشجار دم الأخوين



من أشجار النخيل شرق حديبو



من الأشجار البرية في سقطرى



شجرة دم الأخوين



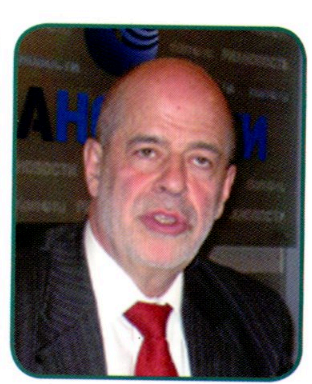
من الأشجار البرية في سقطرى



المحتويات

هذا الكتاب الذي نقدمه (سقطرى... هناك حيث بُعثت العنقاء) لمؤلفه المستشرق الروسي المعروف فيتالي ناؤومكين، هو باكورة أبحاث ودراسات لاحقة له عن سقطرى، منها: (دراسات إثنوغرافية - لغوية عن سقطرى)، و(السقطريون-دراسات إثنوغرافية تاريخية)، وهذا الأخير هو أهم أعماله المكرسة لسقطرى، أجمل فيه حصيلة بحثه العلمي الدائب، النظري والميداني من مطلع السبعينيات وحتى صدوره عام ١٩٨٨م في موسكو باللغة الروسية، وقد ترجم إلى الإنجليزية وصدر في لندن عام ١٩٩٣م، قبل أن نتعرف عليه باللغة العربية.

من مقدمة المترجم أ.د. علي صالح الخلاقي



فيتالي ناؤومكين مؤلف هذا الكتاب، مؤرخ ومستشرق روسي معروف، درس في موسكو والقاهرة، وتخصص في التاريخ العربي والإسلامي واللغة العربية، وعمل أستاذًا في علم التاريخ، وزار عددا من الدول العربية، واشتغل في اليمن مدرسًا وباحثًا، وفي منتصف الثمانينيات انتقل إلى معهد الدراسات الشرقية في أكاديمية العلوم الروسية، حيث يعمل نائبًا لمدير المعهد، ورئيسا لقسم الدراسات الاستراتيجية والدولية، وله العديد من المؤلفات الأخرى مثل «التاريخ المعاصر للدول العربية» في جزأين، و«الجبهة القومية في النضال من أجل استقلال جنوب اليمن» وغيرها.





توزيع: دار الوفاق للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية-الرياض
هاتف:00966114041561